محاورة "لايليوس عن الصداقة"
بين فلسفة الأخلاق والواقع السياسي

أ.د. / علي عبد التواب علي
كلية الآداب – جامعة القاهرة

مقدمة:

تُعد الصدقة ذات حضور بارز في الذهن الروماني، وقد حظيت بالكثير من التأمل والتفكّر. وكما هو متوقع، وفّرت الفلسفة اليونانية الإطار الفكري لهذا التأمل. وقد ميّز أرسطو بين ثلاثة أنواع من الصداقة (**φιλία**) بناءً على دوافعها المختلفة: المنفعة، واللذة، والفضيلة. وقد اعتبر الصداقة القائمة على الفضيلة أنها الوحيدة الثابتة والدائمة، لأنها قائمة على حبّ "الخير المطلق" الذي يدركه الأصدقاء في بعضهم البعض. أما الصداقة المبنية على المنفعة أو اللذة، فلا تدوم إلا ما دامت نافعة أو ممتعة، وهي، في جوهرها، امتداد لحبّ الإنسان لذاته. لذا فإن الصداقة القائمة على الفضيلة تُعدّ الأسمى، وهي التي تُستخدم كمقياس تُقاس عليه سائر أنواع العلاقات. ومع ذلك، فإن أرسطو لم يرفض وجود الصداقات الأخرى أو يقلل من واقعيتها؛ إذ رأى أن الاقتصار على الاعتراف بالصداقة الفاضلة فقط يتعارض مع الواقع المُشاهد. بمعنى آخر، الواقع يفرض علينا أن نعترف بوجود صداقات لا تقوم على الفضيلة، وإن كانت أدنى مرتبة.

ويرى أبيقور أن الصداقة تنشأ من حاجة البشر إلى الأمان والمتعة النفسية. ويقول أبيقور إن جميع أشكال الصداقة يمكن إرجاعها إلى حاجة الإنسان للآخرين:

πάσα φιλία δί έαυτήν αρετή. αρχήν δέ εΐληφεν από τής ώφελείας. (Epic. Sententiae Vaticanae 23)

" كل صداقة هي فضيلة في ذاتها، لكنها تنشأ من تقديم يد العون (للآخرين)."

بمعنى أن الصداقة، وإن كانت شيئًا محمودًا، إلا أن دافعها الأساسي عند أبيقور هو المنفعة المتبادلة، والحاجة إلى التعاون من أجل الحياة السعيدة وتجنّب الألم. وشيشرون يرفض هذا بشدة،

بل ويسخر من منطق أن نصادق لأجل المنفعة فقط؛ إذ يرى أن الصداقة تنشأ من ميل طبيعي بين الأرواح الفاضلة، وليس من توقعات المردود.

أما الرواقيون، وعلى رأسهم زينون **(Ζήνων)** وخليفته خريسّبوس **(Χρύσιππος)** ، اعتبروا الفضيلة الخير الأوحد، وبالتالي فإن الصداقة الحقيقية لا تقوم إلا بين الحكماء الذين بلغوا الكمال الأخلاقي. ولكن هذا يجعل الصداقة نادرة وربما مستحيلة، لأن عدد الحكماء قليل جدًا. وشيشرون، المتأثر بالرواقية، ينتقد هذا الطرح الضيق، ويطرح تصورًا أكثر واقعية وإنسانية: فالصداقة تقوم بين رجال فاضلين نسبيًا، لا بالضرورة كاملين، وهي ممكنة رغم ضعف الطبيعة البشرية.

فالرواقيون أعادوا التأكيد على أولوية الفضيلة باعتبارها الأساس الوحيد للصداقة الحقيقية. فهم لم ينكروا أن العاطفة (المودّة أو المحبة) أمر ضروري للصداقة، لكنهم اختلفوا مع الإبيقوريين في مصدر هذه العاطفة: فعند الإبيقوريين: تنشأ المحبة استجابةً للمعونة المتوقعة من الآخرين. وعند الرواقيين: تنشأ المحبة نتيجةً لإدراك الفضيلة في الآخر. أي أن الإبيقوري يرى في الصداقة وسيلة للطمأنينة وتبادل النفع، بينما الرواقي يرى فيها صلة أخلاقية تقوم على احترام الخير المتجسد في الإنسان الفاضل.

"لايليوس عن الصداقة":

كان شيشرون يمثل نقطة التقاء فريدة بين الفلسفة اليونانية والتطبيق الروماني العملي، وقد كان واعيًا تمامًا لهذا الجدل الفلسفي حول الصداقة، لا سيما بين الإبيقوريين والرواقيين. وقد تناول هذا الموضوع بتوسّع في محاورة **"لايليوس: عن الصداقة" (Laelius de Amicitia)** ، وهي من أهم النصوص في الأدب اللاتيني التي تعالج مفهوم الصداقة **(amicitia)** ضمن إطار أخلاقي وسياسي. وقد رفض شيشرون رأي الإبيقوريين للمنفعة كأساس للصداقة، حيث يقول:

Non igitur utilitatem amicitia, sed utilitas amicitiam secuta est. (De Am. 14.51)

" إذًا، لم تكن المنفعة سببًا في نشوء الصداقة، بل كانت هي ثمرةً لاحقة لها."

هنا يعارض شيشرون الموقف الإبيقوري بشكل مباشر: فهو يرفض أن تكون الصداقة وسيلة للحصول على النفع، ويقول إن المنفعة تتبع الصداقة الحقيقية، ولا تسبقها.

وفي المقابل كان شيشرون يعلي من رأي الرواقيين أن الفضيلة أساس أوحد للصداقة، حيث يرى أن الفضيلة (**virtus**) هي الأصل الطبيعي للصداقة، وأن النفوس الخيّرة تنجذب إلى بعضها كما تنجذب الأرواح الشبيهة. وهذا يتماشى مع التعريف الرواقي للصداقة، باعتبارها رابطة بين ذوي الفضيلة، لا بين أصحاب المصلحة. فالنص يهيئ القارئ لموضوع جوهري في الفكر الروماني: الصداقة كفضيلة أخلاقية، وكرباط إنساني لا يخضع للمنفعة أو المصلحة السياسية. كما يلمّح إلى أن الصداقة، مثل الحكمة، تُمارس وتُروى وتُعلّم عبر الأجيال.

إن وعي شيشرون بتنوّع أشكال الصداقة في الواقع يجعله قريب من موقف أرسطو رغم تمسّكه بنموذج الصداقة الفاضلة، وكان شيشرون يدرك مثل أرسطو أن كثيرًا من الصداقات في الحياة تقوم على المنفعة أو اللذة، فهو لا ينكر وجود صداقات سطحية، لكنه يعتبرها غير مكتملة أو عرضية، وأن الصداقة الحقيقية لا تتحقق إلا مع الفضيلة.

الشخصيات الحوارية:

اختار شيشرون النمط الأرسطي للحوار بدلاً من النمط الأفلاطوني، الذي كان أقل ملاءمةً لغرضه. فهناك متحدث رئيسي واحد يقدم خطابًا شبه متواصل تتخلله تعليقات عرضية فقط من قبل المشاركين الآخرين.

تضم المحاورة ثلاثة متحاورين: جايوس لايليوس الملقب بـ "الحكيم"، وصهراه كوينتوس موكيوس سكايڤولا العراف وجايوس فانيوس سترابو. ومن بين هؤلاء، يلعب لايليوس (المولود حوالي ١٨٦ ق.م) الدور الرئيسي. وكان شيشرون قد استخدم شخصية لايليوس سابقًا في محاورة "كاتو الأكبر عن الشيخوخة" و"عن الجمهورية"، واعتبره – نظرًا لشهرة صداقته الدائمة مع سكيبيو – الشخص الأنسب لشرح الآراء حول الصداقة.

جايوس لايليوس: كان جايوس لايليوس (**Gaius Laelius**) قائدًا عسكريًا ورجل دولة رومانيًا، اشتهر بصداقته الوثيقة مع سكيبيو أفريكانوس (**Scipio Africanus**)، البطل الذي هزم هانيبال في الحرب البونية الثانية. وقد لعب لايليوس دورًا محوريًا في حملات سكيبيو العسكرية، بما في ذلك

الحملة الإيبيرية (٢١٠–٢٠٦ ق.م)، وشارك في غزو إسبانيا (شبه الجزيرة الإيبيرية، وتضم إسبانيا والبرتغال الحديثتين). وفي الحملة الأفريقية (٢٠٤–٢٠٢ ق.م)، حيث قاد سلاح الفرسان الروماني في معركة زاما (٢٠٢ ق.م)، التي أنهت الحرب لصالح روما. وبعد الحرب، شغل لايليوس مناصب سياسية رفيعة، منها القنصلية عام ١٩٠ ق.م.، وقد أصبحت صداقة لايليوس وسكيبيو مثالًا كلاسيكيًا للولاء العسكري والثقة المتبادلة في التاريخ الروماني.

جايوس فانيوس: جايوس فانيوس **(Gaius Fannius)** (١٨٠–١٢٠ ق.م) قنصل عام ١٢٢ ق.م، قاد المعارضة ضد جايوس جراكوس، الأخ الأصغر لتيبيريوس جراكوس، الذي سعى لتوسيع الإصلاحات الزراعية ومنح الجنسية للحلفاء الإيطاليين.

كوينتوس موكيوس سكايڤولا (العراف): (Q. Muccius Scaevola) (١٦٩ – ٨٨ ق.م) كان سكايڤولا سياسيًا في العهد الجمهوري الروماني، وفيلسوفًا رواقيًا، وأحد أوائل المراجع في القانون الروماني. تلقى تعليمه الأول في القانون على يد والده (الذي يحمل الاسم نفسه)، وفي الفلسفة على يد الفيلسوف الرواقي بانايتيوس الرودي.

تقلد منصب نقيب العامة عام (١٢٨ ق.م)، ومنصب الأيديل عام (١٢٥ ق.م)، ومنصب البرايتور عام (١٢١ ق.م)، وأثناءها عمل كحاكم لآسيا، وعند عودته إلى روما (١٢٠ ق.م)، واجه اتهامًا بالابتزاز من قبل تيتوس ألبوكيوس (ربما بدوافع شخصية)، لكنه دافع عن نفسه بنجاح. وتقلد منصب القنصلية عام (١١٧ ق.م).

ملخص محاورة عن لايليوس عن الصداقة:

تحتوي المحاورة على ١٠٤ فصل:

يمكننا تقسيم المحاورة إلى أربعة أقسام رئيسة وهي كالآتي:

١–٥: إهداء إلى أتيكوس.

٦–١٦: مقدمة للمحاورة.

١٧–١٠٠: أحاديث لايليوس عن الصداقة.

١٠١–١٠٤: خاتمة.

وهذا التقسيم الإجمالي يمكن تقسيمه بشكل أكثر تفصيلًا على النحو التالي:

١-٣ : يقدم خلفية المحاورة عن لقاء سكايڤولا العراف في حديقة منزله مع بعض أصدقائه، وتحدثوا عن موضوع كان حديث الناس في ذلك الوقت وهو كيف تحولت الصداقة الحميمة بين بوبليوس سولبيكيوس وكوينتوس بومبيوس إلى عداوة بسبب الخلاف السياسي والتوجه الحزبي. وأدى هذا الكلام إلى تذكر حديث حميه لايليوس عن الصداقة في حضور فانيوس وذلك بعد الوفاة المفاجئة لسكيبيو أفريكانوس.

٤-٥: يوجه شيشرون الحديث إلى أتيكوس ويعلل له لماذا اختار لايليوس للحديث عن موضوع الصداقة، ويصفه بالرجل الحكيم.

٦-١٠: يحاول وضع تعريف للشخص الحكيم.

١١-١٢: يبدأ لايليوس في مدح سكيبيو، ويرى أنه ليس من الحكمة الحزن الشديد على فقد الشخصيات الرائعة مثل سكيبيو، لأن من المؤكد أن روحه الخالدة ستنعم بالنعيم بعد موت الجسد.

١٣-١٤: يتحدث عن خلود الروح وإيمان سكيبيو بذلك، ومن ثمّ، فإن الحزن على مثل هذا المصير ليس دليلاً على الصداقة.

١٥-١٧: يعبر لايليوس عن سعادته بصداقته بسكيبيو، ويقدم تعريفًا للصداقة: "شاركني همومي في الشأن العام والخاص، وسكن معي تحت سقف واحد في الوطن، وخضت معه الحملات في الخارج، وتقاسمت معه — وهذا هو لبّ الصداقة كلها — اتفاقًا تامًا في الميول السياسية، وفي الاهتمامات الأدبية، وفي الرؤية." ويعرب عن رغبته في الحديث عن صداقتهما ليخلدها. ويذكر أنه لن يتحدث عن هذه الصداقة بنفس الطريقة التي تحدث عنها الفلاسفة الإغريق.

١٨-١٩: يتفق لايليوس مع الفلاسفة الإغريق في أن الصداقة لا يمكن أن توجد إلا بين الأخيار، ولكنه يختلف معهم في قولهم إنه لا يوجد أي إنسان خير باستثناء الحكيم، ويرى أن هذا الرأي مثالي ولا يمكن تطبيقه في الحياة اليومية، ويعود مرة أخرى لمفهوم الحكيم.

٢٠-٢٥: يعود لايليوس إلى تعريف الصداقة بأنها تقوم على التوافق بين الطرفين، ولكنه في هذه المرة يربطها بشيئين آخرين هما "النوايا الحسنة" **(benevolentia)** و"المودة المتبادلة" **(caritas)**، ثم يضيف أن الفضيلة **(virtus)** هي أساس قيام الفضيلة والضامن على استمرارها.

٢٦-٣٢: يتناول لايليوس علاقة الصداقة بتبادل المنافع بين الأصدقاء. ثم يعود إلى الحديث عن أهمية الفضيلة في الصداقة، والفضيلة لا تمنع من تبادل المنافع والسخاء.

٣٣-٤٦: يبدأ الحديث عن أسباب انهيار الصداقة مثل عدم توافق الرغبات، أو اختلاف الآراء في شؤون الدولة وتبدّل أخلاق الناس بسبب الشدائد، أو مع تقدّم العمر، أو الخلاف على زواج، أو على مصلحةٍ ما أو المنافسة على منصب. أو حين حين يُطلب من الصديق شيء مشين ويضرب المثل بموقف أصدقاء تيبريوس جراكوس منه، وأمثلة أخرى تاريخية.

٤٧-٥٠: يعود إلى الحديث عن الفضيلة وضبطها للعلاقات الاجتماعية.

٥١-٥٥: يتحدث عن السخاء وعلاقته بالإخلاص، فكيف يمكن للصديق الثري أن يثق في حب الأصدقاء الأقل في المكانة ومن صدق حبهم له.

٥٦-٦٥: يتناول حدود ومعايير الحب في الصداقة، ويربطها بالإخلاص.

٦٦-٧٥: يتحدث عن اللطف في الحديث وأثره في استمرار الصداقة، وهل يُفضل الأصدقاء الجدد الجديرون بالصداقة على الأصدقاء القدامى؟ ثم يتناول عدم التكافؤ بين الأصدقاء.

٧٦-٧٨: ينتقل بعد ذلك إلى تحول بعض الصداقات إلى عداوات، ولهذا يجب الاختيار الجيد للأصدقاء من البداية.

٧٩-٨٥: يعود إلى أهمية التقارب والود من البداية لقيام الصداقة، ثم يدعو إلى اختبار الأصدقاء.

٨٦-٨٧: يتحدث عن أهمية وجود رباط الصداقة بين البشر كمنحة إلهية.

٨٨-٩٩: يذكر لايليوس واجبات الصديق وحق الصديق على صديقه، ويوضح كيف أن التوبيخ والعتاب يجلب الكراهية لدى البعض، ويدعو الأصدقاء ألا يصموا آذانهم عن نصائح أصدقائهم، وأن يُقدّم النصيحة بلطف لا بخشونة، وفي الوقت نفسه يحذر من النفاق، ولكنه يقول إن أهل الحق ينتصرون دائمًا على المنافقين، وأن المنافقين لا يأثرون إلا في أصحاب النفوس المريضة.

١٠٠-١٠٤: ينهي لايليوس حديثة بالإشارة إلى أهمية الفضيلة في كل شئون البشر.

مقدمة تاريخية لمحاورة "لايليوس عن الصداقة":

يمكننا تحديد تاريخ محاورة "لايليوس عن الصداقة" ، من إشارته إليها في عمله "عن الواجبات":

Sed de amicitia alio libro dictum est, qui inscribitur Laelius; (Cic. De Off. 2.31.10)

" أما عن الصداقة فقد كُتب عنها في كتاب آخر بعنوان "لايليوس"."

وهكذا فإن محاورة "لايليوس عن الصداقة " قد كتبها مباشرة قبل محاورة "عن الواجبات" ، أي في عام ٤٤ قبل الميلاد؛ ويذكر شيشرون في مقدمة محاورة "لايليوس عن الصداقة " أن الحوار هو تسجيل لمحادثة فعلية دارت في عام ١٢٩ قبل الميلاد. علاوة على ذلك، نظرًا لأن لايليوس، المحاور الرئيسي في الحوار، كان على الأرجح أنه يبلغ من العمر حوالي ستين عامًا في عام ١٢٩ قبل الميلاد، فإن آرائه تمثل أفكار وتجارب جيل تلقى تعليمه وبلغ أوج عطائه في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد. ويمكن القول بأن محاورة "لايليوس عن الصداقة" تمثل حتى آراء الجيل السابق أيضًا، حيث إن لايليوس يقتبس مرتين آراء كاتو الأكبر (٧٦ و ٩٠).

على أية حال فقد طعن الكثير من الدارسين في ادعاء شيشرون بالدقة، ووصفت الحوار بأنه محض "خيال"، وتمثيل مصطنع لآراء شيشرون نفسه ولا تمت الآراء التي وردت في المحاورة للشخصيات الحوارية كما يدعي شيشرون.

يبدأ شيشرون محاورة "لايليوس عن الصداقة " بالحديث بلسانه هو **(in propria persona)** عن تعلمه على يد كوينتوس موكيوس سكايڤولا العراف (قنصل عام ١١٧ قبل الميلاد)، الذي يقول شيشرون إنه كان يتحدث كثيرًا عن حميه جايوس لايليوس "من الذاكرة **(memoriter,1)** "وبدوره، يقول شيشرون إنه "كان يحفظ في ذاكرته **(memoriae mandabam,1)** " العديد من مناقشات سكايڤولا وأقواله وحكمته. ويتابع شيشرون قائلًا إنه يتذكر **(memini,2)** مناقشة دارت عندما كان هو وزملاؤه الطلاب جالسين في رواق سكايڤولا ذات يوم، وبدأ سكايڤولا يتحدث عن تأملات لايليوس حول الصداقة.

وما أثار هذا الموضوع للنقاش هو الانقسام السياسي الأخير بين رجلين كانا أفضل الأصدقاء – كوينتوس بومبيوس قنصل عام ٨٨ قبل الميلاد الموالي لسولّا ونقيب العامة في ذلك العام بوبليوس سولبيكيوس الموالي لماريوس. كما أن حوار لايليوس مع صهريه، سكايڤولا وجايوس فانيوس، الذي تذكره سكايڤولا ذلك اليوم في عام ٨٨ قبل الميلاد، وقعت أيضًا في وقت لا يُنسى – بعد أيام قليلة من وفاة سكيبيو أيميليانوس في عام ١٢٩ قبل الميلاد. ويمضي شيشرون ليؤكد أنه قد حفظ في

ذاكرته (memoriae mandavi,3) أهم ما ورد في ذلك النقاش، وصاغه بطريقته الخاصة؛ وأنه قدم الشخصيات الحوارية بحيث تبدو وكأنها تتحدث في الحقيقة، لكي يبدو الحوار بأنه يجري وجهًا لوجه ويشعر القارئ وكأنهم حاضرون يتكلّمون بأنفسهم.

ثم يذكر شيشرون طلب أتيكوس – الذي أُهدي إليه العمل- بكتابة عمل عن الصداقة مماثل للعمل الذي كتبه شيشرون سابقًا عن الشيخوخة "كاتو الأكبر عن الشيخوخة". وكما أنه لم يكن هناك شخصية أنسب (aptior persona) للتحدث عن موضوع الحوار الأخير من كاتو، الذي ازدهر وعاش حتى سن متقدمة جدًا، فكذلك بالنسبة لمحاورة عن الصداقة، فإن لايليوس، الذي اشتهرت صداقته بسكيبيو، شخصية مناسبة (ideonea persona) للتحدث عن الصداقة "بالتعبير نفسه الذي تذكره سكايڤولا من المحادثة معه.

إن إصرار شيشرون الشديد على أنه يعيد إنتاج محادثة فعلية جرت في عام ١٢٩ قبل الميلاد بدقة – حتى أنه يذكر حفظه الشخصي ثلاث مرات ("حفظت في ذاكرتي"، "أتذكر"، "أودعت في الذاكرة")، وحفظ سكايڤولا مرتين ("من الذاكرة"، "تذكره منه") – يجعل تكذيبه أمرًا شاذًا. ومع ذلك تبنى معظم العلماء ببساطة الرأي العام القائل بأنه من المستحيل أن يكون شيشرون يعيد إنتاج محادثة تاريخية بمنتهى الدقة من خلال الاعتماد على ذاكرته وذاكرة سكايڤولا.

والحق أن شيشرون يناقض نفسه، فبينما يدعي أولاً أنه ينقل (mandavi, exposui) بالضبط ما سمعه وتذكره (mandabam memoriae, memini, mandavi memoriae) من رواية سكايڤولا لمناقشة لايليوس، يبدو لاحقًا أنه يناقض نفسه ويعترف بأنه يضع كلماته على لسان شخصية (persona) أخرجها على المسرح[1].

إن استخدام شيشرون للاستعارة المسرحية يرقى إلى اعتراف بأنه قام بتلفيق الحوار كمسرحية خيالية، رغم أن شيشرون لا يدعي أنه يكتب مسرحية فعلية، بل تقريرًا سيكون شكله مشابهًا لنص كاتب مسرحي، حيث تتحدث الشخصيات بأقوالها مباشرة. ولهذا السبب استخدم في الفقرة الثالثة

[1] De Am. 1.3

أدوات التشبيه quasi و tamquam في جملة واحدة: إنه يؤكد أن أسلوبه مماثل لأسلوب كاتب المسرحية، وليس هو نفسه. إن هدف شيشرون ليس التلميح بدهاء إلى الطبيعة الخيالية للحوار، بل، كما يقول هو نفسه، تجنب إقحام عبارات "قال" و "قلت" في سياق المحادثة، أي لجعل المحادثة أكثر مباشرة وحيوية. وبعبارة أخرى، فإن شيشرون يريد إعادة إنتاج الحوار كما حدث بالفعل من أجل جعل روايته أكثر وفاءً للواقع التاريخي، وأكثر إمتاعًا لقارئه.

والحق إن الشكل التاريخي للحوار يضفي وقارًا على الأفكار المعبر عنها فيه (الفقرة ٤)، أي أن شيشرون يعترف هنا بأنه يضع آراءه الخاصة على لسان شخص آخر يتمتع بسلطة أكبر. لقد كان أمام شيشرون خيار التعبير إما عن آرائه الخاصة، أو آراء مفكرين سابقين بصوته هو كمؤلف، أو آراء مفكرين سابقين بأصواتهم هم؛ وأن الأخيرة تتمتع بطبيعة الحال بسلطة أكبر بحكم قدمها، وتكون لكلماتهم وقارًا أكبر إذا جُعلت تعبر عن نفسها مباشرة، بدلًا من الاعتماد على وسيط هو صوت المؤلف. ويبدو لنا أن شيشرون قد وضع آراءه الخاصة على لسان شخص آخر يتمتع بسلطة أكبر فمن المستحيل أن يكون شيشرون قد تذكر في عام ٤٤ قبل الميلاد رواية لمحادثة نقلها إليه سكايڤولا في عام ٨٨ قبل الميلاد، خاصة بالنظر إلى حقيقة أنه كان مجرد شاب صغير عندما سمعها. ويؤكد هذا الرأي أن شيشرون جعل لايليوس يتحدث بنبوءة طويلة عن الاضطرابات الأهلية القادمة وانحدار الدولة الرومانية، بالإضافة إلى التنبؤ بمنصب نقيب العامة في المستقبل أي جايوس جراكوس، شقيق نقيب العامة المغتال عام ١٣٣ قبل الميلاد أي تيبريوس جراكوس (الفقرات ٤٠-٤٣). ولم يكن بمقدور لايليوس الحكيم، مهما أوتي من حكمة، تقديم مثل هذه التوقعات في عام ١٢٩ قبل الميلاد.

نجح شيشرون في الربط بين الحلقات الثلاث في سلسلة النقل: مناقشة لايليوس الأصلية (عام ١٢٩ ق.م.)، ورواية سكايڤولا (عام ٨٨ ق.م.) ، وتدوين شيشرون لها(عام ٤٤ ق.م.) – وكانت كلها مدفوعة بظروف تاريخية لا تُنسى بشكل خاص. فقد أثارت وفاة سكيبيو تأملات لايليوس – وهو حدث لا يُنسى للغاية بالنسبة له وللمستمعين إليه، بمن فيهم سكايڤولا. وبدوره، أعاد سكايڤولا

سرد محادثة لايليوس في مناسبة لا تُنسى لمن كانوا في جمهوره، بمن فيهم شيشرون – والانقسام سيء السمعة والعنيف بين الصديقين الحميمين كوينتوس بومبيوس وبوبليوس سولبيكيوس عام ٨٨ قبل الميلاد. وأخيرًا، على الرغم من أن شيشرون يقول إن السبب المباشر لكتابته محاورة "لايليوس عن الصداقة" هو تلبية طلب أتيكوس، فلا شك أن اغتيال يوليوس قيصر يفسر توقيت كتابة هذه المحاورة: فقد كان دور أصدقاء الديكتاتور وسقوطه والفوضى السياسية اللاحقة موضوع نقاش حيوي في روما بعد الخامس عشر من مارس عام ٤٤ قبل الميلاد. وهكذا، لا بد أن الظروف التاريخية التي لا تُنسى قد رسخت مناقشة لايليوس بقوة في أذهان سكايڤولا وشيشرون. وسوف نقدم الآن ترجمة كاملة لنص محاورة " لايليوس عن الصداقة"، وأتبعها بتحليل للنص لتوضيح كيف تمكن شيشرون من تحميل كلمات النص ما يعبر عن موقفه من فلسفة الأخلاق اليونانية بخصوص الصداقة وكذلك الواقع السياسي الروماني بكل ما فيه من مؤامرات أدت إلى سقوط الجمهورية.

ترجمة " لايليوس عن الصداقة "[1]

١.١. اعتاد كوينتوس موكيوس سكايڤولا، العرّاف أن يروي من ذاكرته، وبأسلوب جذاب، العديد من الحكايات عن حميّه، جايوس لايليوس، وكان في كل حديث عنه، لا يتردد في إطلاق لقب "الحكيم" عليه. وبمجرد أن ارتديت عباءة الرجولة (التوجا)[2]، قُدّمت إلى سكايڤولا من قِبَل والدي، على هذا النحو الذي يمكنني ألا أفارقه قط قدر استطاعتي وبقدر ما يسمح لي هو.
وعلى ذلك كنت أحاول أن أحفظ في ذاكرتي الكثير من مناقشاته التي تتسم بالحكمة، والكثير من أقواله الموجزة والسديدة، وذلك لرغبتي الشديدة في أن أصبح أكثر علمًا بفضل حكمته (في العلم القانوني). وبعد وفاته، توجهت إلى الكاهن سكايڤولا، الذي أجرؤ على القول إنه الوحيد في وطننا الأكثر تميزًا في الذكاء والنزاهة معًا. ولكني سأرجئ الحديث عنه إلى وقت آخر؛ أما الآن، فأعود إلى الحديث عن العرّاف.

٢.١. ولطالما تذكرت الكثير من الأحداث (في حياة هذا الرجل أي سكايڤولا العرّاف)، إذ أتذكر أنه ذات مرة كان يجلس في منزله على أريكته، كما كانت عادته، ولم يكن معه إلا عدد قليل من أصدقائه المقرّبين، وكنت أنا من بينهم؛ واتُّفق أن نتحدث في ذلك الموضوع الذي كان يجري بقوة على ألسنة الكثير من الناس. وأنت بالطبع تتذكره، يا أتيكوس، لأنك كنت على صلة وثيقة ببوبليوس سولبيكيوس[3]؛ فعندما كان ذلك الرجل نقيبًا للعامة ابتعد في بغضاء قاتلة عن كوينتوس بومبيوس[4]، الذي كان حينئذ يشغل منصب القنصل، والذي كان يعيش معه في منتهى الوئام ومنتهى المحبة؛ كم كان هذا الحدث مسار استغراب الناس، وكم كان محل ندمهم.

٣.١. وعلى ذلك، عندما أتى سكايڤولا على ذكر هذا الموضوع، عرض لنا حديث لايليوس عن الصداقة الذي جرى بينهما ومع زوج ابنة (لايليوس) الآخر أي جايوس فانيوس بن ماركوس، وذلك

---

[1] شاركت في المسودات الأولى للترجمة د. نجوى أحمد مصطفى

[2] إذا كان شيشرون قد ارتدى عباءة الرجولة وهو في سن السادسة عشر أي عام ٩٠ ق.م. وسكايڤولا العراف مات عام ٨٨ ق.م. فهذا يعني أنه قد لازمه لمدة عامين.

[3]. خطيب مفوه، ونقيب العامة عام ٨٨ ق.م. ، وقد لقي مصرعه في هذا العام عندما تحالف مع ماريوس في الحرب الأهلية ضد سولّا.

[4]. قنصل عام ٨٨ ق.م. ، وهو حفيد كوينتوس بومبيوس قنصل عام ١٤١ ق.م. ومن خصوم تيبريوس جراكوس.

بعد وفاة سكيبيو أفريكانوس[1] بأيام قليلة. وقد حفظتُ عن ظهر قلب أهم ما ورد في ذلك النقاش (من أفكار)، وتناولتها في هذا الكتاب من وجهة نظري؛ إذ إنني قدمت الشخصيات الحوارية نفسها بحيث تبدو وكأنها تتحدث في الحقيقة، وجعلتها تتحدث بألسنتها، حتى لا أُكثر من قطع الحديث بعبارات مثل "قال هو" و"قلت أنا"، ولكي يبدو الحوار بأنه يجري وجهًا لوجه (ويشعر القارئ وكأنهم) حاضرون يتكلّمون بأنفسهم.

٤.١. وحيث إنك كنتَ تلحّ عليَّ مرارًا كي أكتب شيئًا عن الصداقة، بدا لي الموضوع جديرًا بالتأمل، مع الأخذ في الحسبان كل الاعتبارات لمتانة العلاقة التي تربطني بك. ولهذا، قمت بذلك عن طيب خاطر، فلعلي بذلك أفيد الكثير من الناس استجابة لطلبك. وكما فعلتُ في (كتابي السابق) " كاتو الأكبر" الذي وجهته إليك أيضًا حول موضوع الشيخوخة، قد اتخذت كاتو الأكبر، عندما صار شيخًا، ليكون المتحدث الرئيس، وذلك لأنه حسب اعتقادي لا توجد شخصية أنسب منه يمكنها الحديث عن هذه الفترة من العمر، إذ إنه عاش مدة زمنية طويلة جدًا في مرحلة الشيخوخة، كما أنه بز الآخرين في أنه عاش شيخوخة مزدهرة؛ وهكذا، فإنه عندما علمنا من آبائنا أن رباط الصداقة بين جايوس لايليوس وبوبليوس سكيبيو جديرة بالحديث عنها، فقد بدت لي شخصية لايليوس بأنها الأنسب لتقول عن الصداقة تلك الآراء ذاتها التي يتذكر سكايڤولا أن لايليوس قد قالها.

على أية حال، فإن هذا النوع من المناقشات يعتمد على مكانة رجال من الجيل السابق وعلى شهرتهم، مما يجعل أقوالهم تبدو أكثر وزنًا لدى القراء، ولا أدري على أي أساس أبني رأيي هذا؛ ولهذا، حين أقرأ ما كتبتُه (عن الشيخوخة) فإنني يراودني أحيانًا شعور أن كاتو هو المتحدث وليس أنا.

٥.١. لكن مثلما كَتَبَ شيخٌ إلى شيخٍ عن الشيخوخة، وهكذا في هذا الكتاب، أكتب بوصفي صديقًا محبًا جدًا إلى صديق عزيز عن موضوع الصداقة. (في العمل السابق) كان كاتو هو المتحدث، لأنه في ذلك الوقت لم يكن هناك أحد تقريبًا يكبره في السن ولا أحد أكثر منه حكمة؛ أما الآن، فإن لايليوس سيتحدث عن الصداقة، فهو رجل حكيم – فقد كان كذلك في نظر الناس – كما أنه يتمتع بشهرة بالغة في مضمار الصداقة.

[1] توفي سكيبيو أفريكانوس الأصغر عام ١٢٩ ق.م.

أتمنى منك أن تصرف ذهنك عني للحظة، وأن تتخيل أن لايليوس نفسه هو من يتكلم. يأتي جايوس فانيوس وكوينتوس موكيوس (سكايڤولا) إلى (بيت) صهرهما بعد وفاة أفريكانوس؛ ومنهما ينشأ الحوار، (هما يسألان) ويجيب لايليوس، الذي تدور كل مناقشته عن (موضوع) الصداقة، التي بقراءتها ستعرف نفسك (أي سترى في كلماته مرآة لنفسك).

١. ٦. **فانيوس:** ما تقوله هو عين الصواب، يا لايليوس؛ فما من رجل كان أفضل من سكيبيو، ولا من هو أكثر منه شهرة. لكن عليك أن تدرك أن أنظار الناس الآن كلها متجهة إليك وحدك؛ فأنت من يلقبونه بالحكيم، ويعتقدون في ذلك؛ خُلع (هذا اللقب) مؤخرًا على ماركوس كاتو، ونعلم أن لوكيوس أكيليوس[١]، في زمن آبائنا، كان يُدعى أيضًا بلقب "الحكيم"، لكن كلًّا منهما نال هذا اللقب لسبب مختلف على نحو ما: فأكيليوس كان يعد حكيمًا لبراعته في القانون المدني؛ أما كاتو فبسبب امتلاكه لخبرات في أمور شتى، وكثرة ما أبداه من نفاذ بصيرة وأفعال تتسم بالثبات وردود تتسم بالحدة، سواء في مجلس الشيوخ أو في ساحة القضاء، ولهذا السبب فقد حصل بالفعل في شيخوخته على لقب الحكيم[٢].

١. ٧. أما أنت، فقد حظيت بلقب الحكيم من منظور مختلف: فلا يرونها في فطنتك الفطرية وسجاياك فحسب، بل في شغفك بالعلم، وسعة علمك، فالناس لا يلقبونك بالحكيم كما يفعل العامة (الجهال)، بل كما اعتاد المثقفون أن يطلقوا على شخص لقب الحكيم، فمثل هذا الرجل لا يوجد له

---

[١]. أحد معاصري كاتو الأكبر، وقد كتب مقالًا عن الألواح الاثنى عشر.

[٢] في هذا الحوار، يبدأ فانيوس بتعداد أنواع الحكمة وسبل اكتسابها عبر الزمن، مبينًا أن لقب "الحكيم" ليس واحدًا في معناه عند الجميع: أكيليوس يُعد حكيمًا في مجال القانون المدني —يمثل نموذج "الحكمة القانونية." وكاتو الأكبر نال اللقب بسبب التجربة العملية والفطنة السياسية والحضور الخطابي — إذن، الحكمة لديه تأتي من ممارسة الحكم والشؤون العامة. أما لايليوس، فحكمته تنبع من الفكر والثقافة والفضيلة الداخلية —أي من كونه فيلسوفًا عمليًا في حياته، يجسّد القيم لا بمجرد القول، بل بالعيش. يقول فانيوس إن لايليوس يُعد حكيمًا لأنه "يعد كل ممتلكاته في نفسه"، ولا يعوّل على الحظ، بل يعلي من شأن الفضيلة على تقلبات الدنيا. وهذا الطرح يعكس المدرسة الرواقية في الفلسفة، حيث تعتبر أن الإنسان الحكيم: مكتفٍ بنفسه. لا يهتز بالمصائب. يرى الخير الأسمى في الفضيلة وحدها. فالفكرة الأساسية أن الحكيم لا يعتمد على ما هو خارجي وزائل، بل يعيش حياة متزنة منضبطة، قائمة على السيطرة على النفس والرضا بالعقل.

مثيل في كل ربوع بلاد اليونان. وفيما يتعلق بأولئك الذين أُطلق عليهم لقب "الحكماء السبعة[١]"، فالنقاد المتشددون لا يعدّونهم من زمرة الحكماء، باستثناء، كما نعلم، رجل من أثينا (أي سقراط)، فذلك الرجل بحق قد أُعلن أنه أحكم الناس من قبل نبوءة أبولّون.

يعتقدون أن هذه الحكمة فيك، وهي أنك تعتبر كل شيء يتعلق بك ينبع من ذاتك، وتظن أن مصائب الدنيا أدنى من الفضيلة. ولذلك يسألونني، وأعتقد أنهم يسألونك أيضًا يا سكايڤولا، كيف تتحمل موت أفريكانوس... وخاصةً بعد أن تغيّبت في يوم النونيس الأخير، عندما ذهبنا إلى حدائق دكيموس بروتوس العراف بغرض النقاش، كما جرت العادة، ولم تكن حاضرًا؛ على الرغم من أنك تحرص على الحضور في هذا اليوم وعلى المشاركة في هذا النشاط بأشد درجات الالتزام والحرص[٢].

٢. ٨. **سكايڤولا** : حقًا، هناك الكثير من التساؤلات، يا جايوس لايليوس، تمامًا كما قال فانيوس؛ لكنني أُجيب بما لاحظته: وهو أنك قد تحملت بصبر واضح الألم الذي عانيت منه بسبب موت رجلٍ رفيع المنزلة وفي الوقت نفسه صديقك الحميم؛ وقد رأيتُ أنك لا يمكن أن تكون لم تتأثر بهذا الخطب، كما أن عدم التأثر لا يتناسب مع طبيعة مشاعرك المرهفة. أما عن عدم حضورك اجتماعنا في يوم النونِيس، فأنا أُرجع السبب إلى وعكةٍ صحية، لا إلى الحزن.

---

[١] حكماء اليونان السبع هم: الفيلسوف طاليس من ميليتوس، بيتاكوس من ميتيليني، وهو حاكم ميتيليني، بياس من بريني وهو سياسي ومشرع، سولون من أثينا، كليوبولوس طاغية ليندوس، ميسون من خيناي، خيلون من إسبرطة.

[٢]. اعتاد العرافون الاجتماع في أيام النونيس من كل شهر وهو اليوم السابع لشهور مارس ومايو ويوليو وأكتوبر، واليوم الخامس لباقي الشهور. وكان فانيوس طرح سؤال ضمني: هل يفترض بالحكيم أن يحزن على فقدان صديقه؟ إن اختفاء لايليوس عن الاحتفال الديني المعتاد بعد وفاة سكيبيو كان لافتًا، لأنه بدا وكأنه تأثر بالموت كما يتأثر العوام. لكن في الوقت ذاته، هناك اعتراف ضمني بأن: حتى الحكماء قد يحزنون، لا لأنهم ضعفاء، بل لأنهم يحبون بصدق، ويعترفون بقيمة الصداقة. هنا نجد توازنًا دقيقًا بين الاعتراف بالحزن كفضيلة إنسانية، وبين ضرورة الحفاظ على صورة الحكيم الرواقي الذي لا يُهز بسهولة أمام المحن. فالحكيم الرواقي هو الذي يحزن دون أن يسقط، ويشعر دون أن يفقد صلابته. وهذا الحوار يُهيئ القراء من الناحية النفسية والفكرية للموضوع الرئيسي للحوار أي الصداقة. ففيه يتبيّن أن فقدان سكيبيو لم يكن حدثًا عابرًا، بل امتحانًا أخلاقيًا وفلسفيًا للحكيم، وأن الصداقة الحقيقية قد تهزّ النفس، لكنها لا تُسقطها.

لايليوس: كان جوابك حقًا هو عين الصواب يا سكايڤولا، ويتفق مع الحقيقة؛ لأنه لم يكن ينبغي عليَّ أن أتغيب بسبب أي ظرف شخصي غير مناسب عن أداء هذا الواجب، الذي واظبتُ عليه دومًا ما دمتُ بصحة جيدة. كما أنني لا أرى أن أية مصيبة من هذا النوع يمكن أن تدفع إنسانًا قوي النفس إلى إهمال واجبٍ من واجباته.

٢. ٩. وأما قولك يا فانيوس، إن الناس يعزون إليّ الكثير من الخصال الحميدة — فضيلة لا أقرّ بها لنفسي، ولا أدّعيها — فأنت تتصرف كصديق؛ غير أني أرى أنك لم تُوفِ كاتو حقَّه من التقدير. فإما أن لا أحدَ كان حكيمًا قطّ — وهذا، في الحقيقة، رأيٌ أراه راجحًا — أو إن كان ثمة من يُعد حكيمًا، فهو ذلك الرجل (أي كاتو) دون سواه. لأنه، إن غضضنا الطرف عن كل الأدلة الأخرى، تأمل فقط كيف احتمل موت ابنه! لقد كنت أذكر أن باولوس (مر بالموقف نفسه)، ورأيت بنفسي جالّوس (وهو يمر بذات الموقف)؛ لكن كلاهما فقد ابنه وهو في سن الصبا، بينما كاتو فقد ابنه في ريعان شبابه وكان رجلًا واعدًا[١].

٢. ١٠. وعلى هذا خذ حذرك من أن تُقدّم أحدًا على كاتو، حتى ذلك الرجل الذي، كما تقول، اعتبره أبولّون أحكم البشر؛ فذاك نالَ المديح لأقواله، أما كاتو فاستحق الثناء على أفعاله[٢]. أما عن نفسي، فدعاني أُخاطبكما معًا، وخذا مني ما يلي:

[١] يفتتح لايليوس كلامه بنفي ما نُسب إليه من حكمة، وهذا نوع من التواضع الروماني الرزين، لكنه في ذات الوقت يُمهّد لتمجيد كاتو. ثم يُشير — في نغمة شبه فلسفية — إلى أن الحكمة الحقيقية نادرة، بل ربما غير موجودة أصلًا، وهو رأي يميل إليه الرواقيون أحيانًا، لأنهم يرون أن "الحكيم الكامل" أقرب للمثال الأفلاطوني منه إلى الواقع. ويقدم لايليوس موت الابن باعتباره الاختبار الأقصى للرجل الروماني، كان باولوس وجالوس معروفَين بالثبات، لكن لايليوس يستثني موقفهما لأن أولادهما ماتوا صغارًا. بينما كاتو تحمّل فقد ابنه الذي أصبح رجلًا ناجحًا ومشهودًا له، مما يجعل مصابه أعظم وصبره أسمى. وهذا يُشير إلى تدرّج الألم في الفقد، وإلى أن الحكمة تُقاس بقوة النفس في وجه المصائب الكبرى، لا الصغرى.

[٢] يجري لايليوس مقارنة بين سقراط الذي حكم عليه أبولّو بالحكمة وبين كاتو. وهذا يعكس التمييز الروماني بين النظرية والتطبيق، فالرومان كانوا يعظّمون الفعل والعمل أكثر من الجدل والفلسفة النظرية. وهذا الرأي ليس ضد سقراط شخصيًا، بل هو امتداد لروح رومانية براجماتية ترى أن الفعل الذي يُخدم به الوطن والمجتمع أسمى من الجدل المجرد، مهما بلغ من العمق.

٣. ١٠. لو أنكرتُ أنني تأثرت بوفاة سكيبيو، لرأى الحكماء أن ما أفعله هو عين الصواب، بيد أني أكون بالتأكيد كاذبًا. لقد تأثرت لفقدي مثل هذا الصديق، الذي أعتقد أنني لن أجد له نظيرًا، ويمكنني أن أؤكد أن لا أحد كان مثله بالطبع. غير أني لا أفتقر إلى السلوى، فإنني أزيح الهم عن نفسي بنفسي، وإنني أواسي نفسي على وجه الخصوص بهذه المواساة، التي تجعلني لا أقع في الخطأ الذي اعتاد أن يقع فيه غالبية البشر فيعذبون أنفسهم عند موت الأصدقاء: فأنا لا أؤمن أن مكروهًا قد أصاب سكيبيو؛ بل أن الخطب قد أصابني أنا، إن كان هناك خطب قد حدث لأحد. على أية حال، فإن الحزن العميق من أجل خسارة كهذه هو من صفات أولئك الذين لا يحبون أصدقاءهم بصدق، بل يحبون أنفسهم فيهم[١].

٣. ١١. ولكن، من ذا الذي ينكر حقًا أن هذا الرجل (سكيبيو) قد أنهى حياته نهاية رائعة؟ لأنه إن لم يكن يرغب في الخلود — وهي الرغبة التي لم يفكر فيها على الإطلاق — فماذا بقي، من الأمور التي يحقّ للإنسان أن يتمناها، ولم يُحققه؟ فذلك الرجل بفضل فضيلته الهائلة قد فاق في شبابه فصاعدًا كل الآمال السامية لمواطنيه التي علقوها عليه منذ أن كان غلامًا. ورغم أنه لم يسعَ يومًا إلى القنصلية، فقد انتُخب قنصلاً مرتين — مرة قبل أن يبلغ السنّ القانونية[٢]، ومرة أخرى في توقيتها المناسب، غير أنها جاءت متأخرة إلى حد ما بالنسبة (لسلامة) الجمهورية، فذلك الرجل بتدميره لمدينتين من ألد الأعداء لإمبراطوريتنا قضى على الحروب ليس فقط في الزمن الراهن، بل أيضًا في المستقبل[٣].

---

[١] لايليوس يفرّق بين نوعين من الحزن:

الحزن النبيل: حزن على رحيل صديقٍ فريد.

الحزن الأناني: الحزن من أجل ما خسره الشخص من راحة أو متعة في غياب صديقه.

فالصداقة الحقيقية، من وجهة نظر لايليوس، تقوم على الإيثار والفضيلة، لا على المنفعة أو الاعتماد العاطفي.

[٢]. حصل على القنصلية في المرة الأولى عام ١٤٧ ق.م. وكان حينها في الثامنة والثلاثين من العمر، وكان ذلك أثناء ترشحه للأيديلية، ولكنه مُنح القنصلية ليقود الجيش الروماني ضد قرطاجة؛ ثم حصل عليها مرة أخرى عام ١٣٤ ق.م. رغم عدم ترشحه للمنصب، وذلك بتكليف من مجلس الشيوخ لينهي الحرب ضد نومانتيا التي حاصرها الرومان لمدة ثمان سنوات دون إحراز النصر.

[٣]. يقصد انتصاره على قرطاجة ونومانتيا الإسبانية.

ولِمَ أُطيل الحديث عن دماثة أخلاقه، وبرّه بأمه، وكرمه تجاه أخواته[١]، وعطفه على أقربائه، وعدله تجاه الجميع؟ كل هذه الأشياء معروفة لكليكما. فضلًا عن ذلك كم كان عزيزًا على وطنه، وقد برهن على ذلك الحزن الذي عمّ جنازته. وعلى ذلك، فأي فائدة كان سيجنيها من إضافة بضع سنوات قليلة إلى عمره ؟[٢] فرغم أن الشيخوخة لا تمثل عبئًا، وهو على ما أتذكر قد ناقشه كاتو معي ومع سكيبيو في العام السابق على موته (موت كاتو)، فإنها تُفقد الإنسان تلك النضارة التي ظلّ سكيبيو محتفظًا بها حتى النهاية[٣].

٣. ١٢. ولهذا، فإن حياته كانت على هذا النحو من الكمال بحيث لا يمكن أن يُضاف إليها شيء، لا من توفيق ولا من مجدٍ أعظم. كما أن موته المباغت وقاه من أن يذوق طعمه. وإنه لأمر عسير أن نُفصح عن طبيعة موته؛ أنتما تعرفان ما يظنه الناس[٤]، ولكن يمكنني أن أقول

---

[١] سكيبيو الأصغر هو سكيبيو أيميليانوس ابن أيميليوس باولوس، أمه بابيريا Papiria كانت قد طُلقت من والده، فمنحها سكيبيو الميراث الذي حصل عليه من جدته بالتبني أي أيميليا Aemilia زوجة سكيبيو الأكبر، وبعد وفاة أمه نقل الميراث ذاته إلى أخواته البنات.

[٢] يذكر لايليوس عناصر سيرة سكيبيو ليؤكد أنه قد نجح في حياته من تحقيق كل شيء:

- **المجد السياسي:** تولى القنصلية مرتين، في توقيت مثالي.
- **الإنجاز العسكري:** أنهى أخطر الحروب ضد روما ضد قرطاجة.
- **الفضائل الشخصية:** كان بارًا بأهله، كريمًا، نزيهًا.
- **محبة الشعب:** تجلّت في الحزن العام عند وفاته.

[٣] لايليوس يستدعي قول كاتو عن الشيخوخة، في محاولة لتفسير أن سكيبيو حتى وإن عاش أكثر، ما كان ليُضيف على كماله شيئًا — بل لعل النضارة التي ميّزته حتى موته كانت ستبهت لو امتد به العمر. والفكرة هنا: أن الكمال لا يُقاس بطول العمر، بل بالأثر الذي يخلفه الإنسان" ، فالموت لا يُنقص شيئًا من عظمة الإنسان إذا كانت الحياة قد بلغت ذروتها". وهكذا يقول لايليوس، مدفوعًا بحكمة الرواقيين، ومُعززًا لفكرة أن الفضيلة تُخلّد الإنسان أكثر من استمرار الجسد. فالموت ليس شرًا، ما دام الإنسان قد عاش حياة فاضلة.

[٤]. عارض سكيبيو بشدة في مجلس الشيوخ الروماني تمرير قانون الأراضي الزراعية الذي تقدم به كاربو Carbo ، وخرج سكيبيو من المجلس في حراسة أنصاره، وفي صباح اليوم التالي وُجد سكيبيو ميتًا في فراشة، فكانت شكوك الناس تتجه إلى اتهام كاربو بأنه وراء موته؛ وقد ألمح شيشرون في محاورة الجمهورية أن أنصار تيبريوس جراكوس هم من قتلوه بسبب معارضه لذات القانون.

Cf. (De or. II.170; Fam. IX.21.3; Qu. Fr. II.3.3)

بصدق: من بين الأيام الكثيرة التي عاشها بوبليوس سكيبيو قد رأى أيامًا احتفالية وسعيدة جدًا — أيامٌ ازدحمت بأفواج المعجبين — كان أكثرها بهاءً هو اليوم السابق لوفاته (لمفارقته للحياة)، حين رافقه إلى بيته، بعد انفضاض مجلس الشيوخ في المساء، أعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم، وعامة الرومان، والحلفاء اللاتين؛ لدرجة أنه بدا وكأنما انتقل من مقامٍ سامٍ في ذُرى المجد البشري إلى مقام الآلهة في عليائها، لا إلى ظلال الموتى في العالم السفلي[1].

٤. ١٣. وأنا لا أتفق مع أولئك الذين بدأوا مؤخرًا في مناقشة تلك الأمور التالية: (الزعم) بأن الأرواح والأجساد يفنيان معًا، وأن كل الأشياء تفنى بالموت[2]. إن لرأي القدماء وزنًا أكبر عندي، سواء أكان ذلك رأي أسلافنا، الذين أقاموا شعائر دينية مقدسة للراحلين بمثل ذلك الاحترام، وهو أمر لم يكونوا ليفعلوه بالطبع لو كانوا يعتقدون أن تلك الشعائر لا تصل إليهم (أي غير ذات جدوى للموتى)؛ أو كان رأي أولئك الذين عاشوا (ذات مرة) على هذه الأرض[3]، الذين نشروا ثقافتهم إلى بلاد اليونان العظمى بمبادئهم وتعاليمهم، التي – وإن اندثرت الآن – كانت آنذاك مزدهرة؛ أو كان رأي من قضى وحي أبولّون بأنه أحكم البشر (أي سقراط)، الرجل الذي لم يكن يقول شيئًا في وقت، ثم يقول عكسه في وقت آخر، مثلما يفعل الكثير من الناس، بل كان دائمًا يقول الشيء ذاته؛ (فمن وجهة نظره) أن أرواح البشر من لدن الإله، وأنها عندما تغادر الجسد، يكون طريق عودتها إلى السماء مفتوحًا لها، وأن عودتها تكون أسهل وأسرع بقدر ما كانت النفس فاضلة وعادلة[4].

---

[1] استخدم شيشرون تدرجًا في الصورة: من "أعضاء مجلس الشيوخ" إلى "الشعب الروماني" ثم إلى "الحلفاء اللاتين" — مما يضفي شعورًا بالشمول والاحتفاء العام. ثم يختم الصورة بانتقال مجازي من الأرض إلى السماء، وكأن سكيبيو لم يمت بل "تأله"، وهو مجاز بلاغي قوي يُستخدم لترسيخ مكانته الرمزية. ثمة تقابل واضح بين "السماء" و"العالم السفلي"، وبين "المجد الإنساني" و"الظلّ" (الموت) — مما يعمّق فكرة أن سكيبيو لم يختفِ بل انتقل لمكان أرفع. يضفي شيشرون على سكيبيو صفات رجل الدولة المثالي، العادل، الكريم، المُحتفى به من كل الطبقات — كأن شيشرون يقول: هكذا ينبغي أن يكون المواطن الروماني الكامل، وهي رسالة سياسية بقدر ما هي فلسفية.

[2]. من الواضح أن شيشرون يشير إلى الفلسفة الإبيقورية وإلى ديوان "في طبيعة الأشياء" للشاعر لوكريتيوس الذي ناقش في الكتاب الثالث موت الروح وإنكار الحياة بعد الموت.

[3]. يقصد هنا الفيثاغوريين الذين أنشأوا مدرسة فلسفية في مدينة كروتونا في القرن الخامس قبل الميلاد.

[4] يعرض شيشرون رؤيته الشخصية حول خلود النفس، ويضعها في سياق ثلاث مرجعيات: الرومان القدماء، والفلاسفة الإغريق في "اليونان الكبرى" (أي ماجنا جرايكيا في جنوب إيطاليا)، وسقراط، الذي تشير إليه العبارة

٤. ١٤. كان سكيبيو يعتنق الرأي ذاته، إذ إنه، قبل وفاته بأيام قليلة للغاية، وكأنه كان يشعر بدنو أجله، وفي حضور فيلوس[١] ومانيليوس[٢] وآخرين — وكنتَ أنت حاضرًا، يا سكايڤولا، إذ جئتَ معي — تحدث على مدار ثلاثة أيام متتالية عن شؤون الدولة (الجمهورية)، وكرّس معظم خاتمة حديثه لمسألة خلود الروح، مستندًا إلى آراء قال إنه تلقاها من سكيبيو أفريكانوس الأكبر في رؤيا أثناء النوم[٣]. فإن كان الأمر على هذا النحو — أن أرواح الصالحين تفرّ، بعد الموت، بأيسر سبيل من قيود الجسد وسجنه — فمن ذا الذي يمكن أن تكون رحلته إلى الآلهة أيسر من رحلة سكيبيو؟ ومن ثمّ، فإن الحزن على مثل هذا المصير ليس دليلاً على الصداقة، بل أخشى أن أقول إنه أقرب إلى الحسد. أما إذا كان الرأي الآخر هو الصحيح — أن الروح والجسد يفنيان معًا، وأن الإحساس ينعدم بعد الموت — فإن الموت، إذًا، لا خير فيه، لكنه أيضًا، يقينًا، لا شر فيه. لأنه في حالة فقدان الإحساس (بالألم) يصير كل شيء سواء، كما لو كان الإنسان لم يولد قط على الإطلاق؛ ومع ذلك، فإن ولادة سكيبيو لَمصدر فرحٌ لنا، وستظل مبعث فخر للدولة ما دامت قائمة.

"الذي قضى الوحي بأنه أحكم البشر." وتقسيم رأيه إلى ثلاثة مستويات يعطي الخطاب توازنًا ويعزز إيقاعه البلاغي، التوازي الثلاثي (Tricolon) . ومن قبل أكد أفلاطون بشكل قاطع في محاورة فيدو أن الروح خالدة، وأن الجسد قيدٌ لها، والموت تحرير. كما يربط عودة الروح إلى "العالم العلوي" بنقاء النفس، تمامًا كما يفعل شيشرون هنا. وهكذا فإن كليهما يرى أن النفس تأتي من "الإله"، وتعود إلى مصدرها.

[١] لوكيوس فوريوس فيلوس، صديق سكيبيو أيميليانوس، وأحد أعضاء صالونه الأدبي، وأحد رعاة الشاعر الكوميدي ترنتيوس، وقنصل عام ١٣٦ ق.م. ، وأحد الشخصيات الحوارية في محاورة الجمهورية لشيشرون.

[٢] مانيوس مانيليوس، ظهر في محاورة الجمهورية كأحد أصدقاء سكيبيو أيميليانوس.

[٣] هنا يستدعي شيشرون إلى الأذهان "حلم سكيبيو" (Somnium Scipionis) في نهاية محاورة الجمهورية وهناك يرى سكيبيو الأصغر جده الأكبر ويعلم منه أن الروح تصعد إلى السماء، ويُحَفِّزه ليخدم الدولة بفضيلة لأنها طريق الخلود الحقيقي. فشيشرون هنا يعيد نفس الفكرة بطريقة شخصية حميمة داخل خطاب عن الحزن والصداقة. وفي هذه الفقرة يعرض شيشرون موقفين متقابلين:

١. **رأي خلود الروح:** ويرى أصحابه أن بالموت تنجو الروح من سجن الجسد وتعود إلى الإله.

٢. **رأي الفناء التام:** ويرى أصحابه أن بالموت تفنى الروح مع الجسد، ولا يوجد إحساس بعد الموت.

لكن شيشرون لا يظهر ميلًا تجاه أحد الرأيين ويتعامل بحياد فلسفي ليبين أن في كلا الاحتمالين لا يجب الحزن عند موت أي إنسان عزيز: فإن كانت الروح خالدة، فمصير سكيبيو مبارك، وإن كانت فانية، فالموت ليس شرًا بل لا مبالاة مطلقة (عدم)؛ وهذا الأسلوب مأخوذ من الجدل الرواقي.

٤. ١٥. ومن ثم، كما قلت آنفًا، فقد انتهت حياة سكيبيو على نحو ممتاز، أما أنا فكان حظي أقل حسنًا؛ إذ إنني، وقد دخلت الحياة قبله، كان من الإنصاف أن أغادرها قبله. ومع ذلك، فإن استذكاري صداقتنا يبعث في نفسي من البهجة ما يجعلني أرى حياتي سعيدة، لأني قضيتها بصحبة سكيبيو، الذي شاركني همومي في الشأن العام والخاص، وسكن معي تحت سقف واحد في الوطن، وخضت معه الحملات في الخارج، وتقاسمت معه — وهذا هو لبّ الصداقة كلها — اتفاقًا تامًا في الميول السياسية، وفي الاهتمامات الأدبية، وفي الرؤية[1]. ولهذا، فإنني لا أجد في شهرتي بالحكمة، التي أشار إليها فانيوس منذ قليل، ذلك القدر من المتعة — لا سيما وأنني لا أستحقها — بمثل ما أجد في أملي بأن تبقى ذكرى صداقتنا خالدة. وهذه الفكرة تسعدني أكثر، لأن التاريخ لا يذكر بالاسم إلا ثلاث أو أربع صداقات من هذا النوع[2]، ومن هذا المنطلق يحق لي أن أأمل أن تُضاف صداقة سكيبيو ولايليوس إلى تلك الأمثلة القليلة، وأن تُخَلَّدْ في ذاكرة الأجيال.

٤. ١٦. **فانيوس:** حقًا يا لايليوس، ينبغي أن يحدث ذلك. ولكن بما أنك ذكرتَ الصداقة، ونحن الآن نستمتع بوقت فراغ (أي متحررون من شؤون الدولة)، فسيكون من دواعي سرورنا — وكذلك سرور سكايڤولا أيضًا، كما أأمل، — أن تُجري، كما جرت عادتك في غيرها من المواضيع، حديثًا عنها، إذا طُرح عليك السؤال، فتبسط لنا رأيك في ماهيتها (من الناحية النظرية)، وكيفية ممارستها(من الناحية العملية).

سكايڤولا : بل سيكون ذلك من دواعي سروري فعلًا. وفي الحقيقة، كنتُ على وشك أن أطلب منك الأمر نفسه، لكن فانيوس سبقني إليه. ومن ثم فإن امتثالك سيصنع معروفًا كبيرًا لكلينا.

٥. ١٧. **لايليوس:** ما كنتُ لأعترض، حقًّا، لو كنتُ واثقًا من نفسي، لأن موضوع النقاش من الأهمية بمكان، ونحن بالفعل متفرغون الآن من شؤون العامة كما قال فانيوس. لكن من أكون أنا؟

---

[1] هنا يقدم شيشرون تعريفًا كلاسيكيًا راسخًا للصداقة الفلسفية مستوحى من أرسطو والرواقيين: وحدة في المبادئ، وانسجام في الأهداف، ومشاركة في الحياة العامة والخاصة وليس مجرد تآلف عاطفي.

[2]. يشير هنا إلى أشهر الصداقات في الأساطير وهي صداقة ثيسيوس وبيريثيوس، وأخيلّيس وباتروكلوس، وأورستيس وبيلاديس، أما الصداقة الرابعة المشهورة التي في ذهن شيشرون فهي صداقة دامون وفينتياس (أو فيثياس)؛ انظر أيضًا: (Cic. Off. III.45; Fin. II.79)

وأي مهارة أملك[1]؟ إن ما تطلبانه هو من شؤون الفلاسفة[2] — بل ومن شؤون الإغريق خاصة — أن يتناولوا أي مسألة تُطرح عليهم فجأة ويتكلموا فيها بإسهاب. وذلك أمر عسير ويتطلّب تدريبًا طويلًا . لذا، إن أردتما استيفاء القول في الصداقة من جميع وجوهها، فإنني أنصحكما أن تنشدا هؤلاء الذين لديهم العلم في هذا المضمار. أما أنا، فلا أملك إلا أن أحثّكما على أن تضعا الصداقة فوق سائر الشؤون البشرية؛ لأنه لا يوجد أي شيء (أكثر منها) جد مرتبط بالطبيعة[3]، ولا شيء أصلح منها للتكيّف مع تقلبات القدر، في السراء كما في الضراء.

٥. ١٨. لكن، بادئ ذي بدء فإنني أشعر بهذا الأمر: أن الصداقة لا يمكن أن توجد إلا بين الأخيار؛ لا أنوي تحليل هذا الموضوع من جديد، مثلما فعل هؤلاء الذين ناقشوا هذه الأشياء بدقة أكبر، ولعلهم على صواب في ذلك، بيد أنهم أعطوا اهتمامًا ضئيلًا للنفع العام (من وراء هذه الصداقة)؛ وذلك لأنهم يقولون إنه لا يوجد أي إنسان خير باستثناء الحكيم. هب أن ذلك الكلام صحيحًا، فإنهم، مع ذلك، يُعَرِّفون تلك الحكمة على نحوٍ يجعل أن لا أحد من البشر يمكنه بلوغها.

[1] يبدأ لايليوس بنبرة متواضعة جدًا، متسائلًا: من أكون أنا؟ وأي مهارة أملك؟ وهذا ليس اعترافًا بضعف حقيقي، بل أسلوب خطابي يُعرف في البلاغة الكلاسيكية بالتواضع المفتعل، حيث يُقلّل المتحدث من قدر نفسه ليجعل حديثه أكثر قبولًا لدى السامع، ويوهمه بأن ما سيُقال عفوي وغير متكلف، رغم أنه يحمل حكمة عميقة. وهو أسلوب نجده كثيرًا في كتابات شيشرون، كأنما يتقدّم القائل خطوة إلى الوراء ليجعل النص يتحدث عن نفسه.

[2]. يلمح هنا إلى السوفسطائيين الذين كان لهم قدرات هائلة كالاستعداد الفوري في النقاش، وهي مهارة اكتسبوها من النقاشات المرتجلة، كما تمتع بها أيضًا فلاسفة الأكاديمية الجديدة. نلاحظ هنا إشارة مبطنة إلى الفارق الثقافي الذي يصوره شيشرون بين الرصانة الرومانية والبلاغة الإغريقية: الإغريق يُجيدون الخوض في النقاشات الفلسفية المرتجلة، بينما الرومان أكثر تحفظًا، يميلون إلى التطبيق العملي لا التنظير. وهذه المقارنة تُمهّد لتبرير حديث لايليوس بأسلوب بسيط وتجريبي، لا فلسفي صرف . لايليوس، أو شيشرون من خلاله، يُلمّح إلى أن الفلاسفة قد يُكثرون من الكلام، لكنهم لا يملكون بالضرورة الخبرة العملية. بينما هو، رجل دولة ورجل تجربة، يتكلم عن الصداقة لا من باب التأمل المجرد، بل من واقع الممارسة. وهذا التقديم يضفي على الحوار طابعًا عمليًا حيًّا لا نظريًا ميتًا. cf. Cic. De Fin. II.1; De or. I.102.

[3] يعد ربط لايليوس للصداقة بالطبيعة كفكرة رئيسية في الفلسفة الرواقية والرومانية عمومًا: أن الطبيعة والعقل يشكّلان معيار الخير، وأن الصداقة، حين تكون صادقة وعقلانية، لا تُعارض الطبيعة بل تُكملها. فرباط الصداقة هنا ليس نفعي فقط، بل وجودي: فالصداقة ليست زينة للحياة، بل عنصرًا بنيويًا فيها. فهي تُعين الإنسان في مواجهة (الحظ، القدر)، وهو مفهوم روماني متجذر يدل على تقلبات الحياة الخارجة عن السيطرة.

على أية حال، فإنه ينبغي علينا أن ننظر إلى تلك الأمور مثلما يتم ممارستها (في أرض الواقع) وفي حياتنا اليومية العامة، ولا (ننظر) إلى تلك الأمور كما نتخيلها أو نتمناها. فطبقًا لمعيار هؤلاء (المفكرين) لن يمكنني أبدًا أن أقول إن جايوس فابريكيوس[1] ومانيوس كوريوس[2] وتيبريوس كورنكانيوس من الحكماء، هؤلاء الرجال الذين كان سلفنا يعدهم حكماء[3]. وعلى ذلك، دعهم (أي السوفسطائيين) يحتفظون لأنفسهم بلقب الحكمة، وما ينطوي عليه من أنانية وغموض، بشرط أن يُطلق على هؤلاء الرجال (سالفي الذكر) أنهم أخيار. كلَّا، فإنهم لن يفعلوا هذا الأمر؛ ولسوف يقولون حقًا إن هذا (اللقب أي الخير) لا يمكن منحه إلا للحكيم[4].

٥. ١٩. فلنمضِ نحن إذن، كما يُقال، بعقولنا البسيطة. من يعيش ويعمل بما يدل على الأمانة والاستقامة، والعدل والكرم، ومن لا تسيّره الأهواء ولا تحكمه النزوات أو الغطرسة، ومن يتمتع بقوة خلقية راسخة — رجال كهؤلاء الذين ذكرت — فهؤلاء هم الأخيار في نظرنا، كما كانوا كذلك في أعين الناس، وهم جديرون بأن يُطلق عليهم هذا الوصف، لأنهم، بقدر ما تسمح الطبيعة البشرية، يسيرون على هدى الطبيعة، وهي أفضل من يرشد إلى العيش الصالح[5].

---

[1] جايوس فابريكيوس لوسكينوس قنصل ٢٨٢ و ٢٧٨ ق.م. ، أرسله الرومان بوصفه رسولًا إلى بيرهوس الذي حاول رشوته وإخافته، لكن دون جدوى، وكان الرومان يعدونه نموذجًا للنمط القديم للروماني.

[2] ماريوس كوريوس دنتاتوس قنصل أعوام ٢٩٠ و ٢٧٥ و ٢٧٤ ق.م. ، انتصر على السامنيين والسابين عام ٢٩٠ ق.م.، وانتصر على بيرهوس عام ٢٧٤ ق.م.

[3] يرتكز استشهاد شيشرون على أسماء رومانية معروفة (فابريكيوس، كوريوس...) ليعزز حجته بأن الصلاح ليس مجردًا، بل متجسد في أفعال رجال حقيقيين. وهذا أسلوب بلاغي قوي يربط النظرية بالتراث المشترك للجمهور.

[4] شيشرون يواجه مباشرة الجدل الفلسفي القديم بين الفلاسفة الرواقيين والسلوك العملي الروماني. الرواقيون يقولون: "لا يُعد المرء صالحًا إلا إذا كان حكيمًا كاملًا"، أي منضبط العقل والمشاعر تمامًا. لكن شيشرون، من موقع رجل الدولة العملي، يرفض هذه المثالية الصارمة، ويرى أن هناك "صلاحًا واقعيًا" يقوم على الأخلاق والسلوك المتزن حتى لو لم يكن صاحبه "فيلسوفًا متكاملًا." فهو يرفع من قيمة "الحكمة العملية" على "الحكمة التنظيرية." وكان الرواقيون (مثل زينون، وسينيكا لاحقًا) يضعون شرطًا صارمًا للصداقة: لا صداقة حقيقية إلا بين "الحكماء". وهذا يعكس التصور الرواقي بأن الصداقة لا تُبنى على العاطفة أو الحاجة، بل على انسجام العقل والفضيلة الكاملة.

[5] يعود شيشرون إلى فكرة أن الطبيعة (Natura) هي المصدر الأسمى للسلوك الصالح. فالخير لا يحتاج لتعريف مجرد، بل يكفي أن يسير الإنسان وفق طبيعته العقلانية والاجتماعية، فتكون أفعاله صادقة، عادلة، خالية من

إذ يبدو لي واضحًا أننا قد خُلقنا على نحوٍ يجعل بيننا جميعًا رباطًا معينًا، يزداد متانة كلما اقتربنا من بعضنا البعض. لذا فإن مواطنينا أعز علينا من الأجانب، وأقاربنا أعز علينا من الغرباء، لأن الطبيعة نفسها هي التي تخلق رباط الصداقة بين هؤلاء الناس[١]، لكنها تفتقر إلى الثبات. فالصداقة تتفوق على القرابة في أمرٍ واحد، هو أن المودة قد تُنزَع من القرابة وتبقى تسميتها، أما في الصداقة، فإن نزع المودة يُبطل الاسم نفسه؛ إذ إنك إن نزعت المودة من الصداقة، زال عنها معناها، أما في القرابة، فتبقى الصلة قائمة اسمًا على الأقل[٢].

٥. ٢٠. ثم ما أعظمَ ما للصداقة من قوةٍ، يتبيّن أوضح ما يكون حين نُقارنها بتلك الروابط اللامحدودة التي تجمع الجنس البشري بأسره، والتي صاغتها الطبيعة نفسها؛ ومع ذلك، فإن هذه التي تُسمى صداقة، قد انحصرت حتى باتت تربط شخصين اثنين فحسب، أو في أحسن الأحوال، عددًا قليلاً جدًا من الناس[٣].

الطمع والطيش. فالرواقي يرى أن الانفعالات تفسد الصداقة، لذا فالصديق يجب أن يكون سيدًا على نفسه، خاليًا من الأهواء(apatheia) ، وهو ما لا يتحقق إلا في الحكيم الكامل — وهو شيء نظري، شبه مستحيل.

[١] شيشرون يصرّ هنا على أن الطبيعة (natura) قد أودعت فينا ميلًا فطريًا نحو التواصل والتقارب. وهذه فكرة شديدة القرب من أفكار الرواقيين، الذين يؤمنون بأن الإنسان جزء من مجتمع كوني تحكمه "المحبة العقلانية."

[٢] جوهر الفكرة هنا أن الصداقة أسمى من مجرد الروابط النسبية، وهي لا تُفرَض كما في القرابة، بل تُختار وتُحافظ عليها بالإرادة والأخلاق. فالصداقة لا تُفرض كما القرابة، بل تُنشأ بالمحبة، وتموت إذا زالت المحبة بينما في القرابة، يمكن أن يبقى الاسم حتى لو ماتت المشاعر — فالأخ قد يبغض أخاه، لكن يبقى "أخاه" قانونًا واجتماعًا.

[٣] في البداية، يشير شيشرون إلى وجود "روابط لا متناهية" توحّد البشر: فجميعنا كائنات بشرية، وجميعنا نتشارك الطبيعة والعقل واللغة وربما الوطن أو الجنس البشري كله. ولكن رغم هذا التواصل الواسع، فإن الصداقة تختص بمجال ضيق جدًا وشخصي للغاية. فالصداقة لا تشمل الجميع، بل تختار البعض ، وبهذا، فإنها تتجاوز كونها علاقة طبيعية، لتغدو علاقة انتقائية، مبنية على الفضيلة والمودة الحرة. فالرواقيون (وخاصة زينون وماركوس أوريليوس) تحدثوا عن المحبة الكونية أو "الانتماء للجنس البشري"، معتبرين أن كل إنسان أخٌ لك في العقل والقدر. لكن شيشرون، رغم تأثره بهم، يميز الصداقة عن تلك الرابطة العامة. فالصداقة عنده: لا تُمنح للجميع، ولا تقوم على المشاركة البشرية وحدها، بل على الانتخاب الأخلاقي والروحي. وبهذا يقترب أكثر من أرسطو، الذي ميّز بين "المحبّة العامة" و"الصداقة الفاضلة" التي لا تنشأ إلا بين أشخاص فاضلين، وتقوم على حب الآخر لذاته لا لمنفعته.

٦. ٢٠. فالصداقة ليست أي شيء آخر سوى الانسجام التام في الأمور الإلهية والبشرية[١]، مقترنٍ بحسن النية والمودة المتبادلة. ولعلّي أرى أن الآلهة الخالدة لم تهب الإنسان، بعد الحكمة، نعمةً أسمى منها. فهناك من يُفضّلون الثروة، وآخرون يفضلون الصحة، وآخرون يؤثرون النفوذ والبعض يفضلون المناصب العامة، بل إن من الناس من يُعلِي شأن اللذة الحسيّة. وهذه الأخيرة هي غاية البهائم، وأمّا ما سواها من الغايات الدنيوية فزائلٌ، وهشّ، وخاضعٌ لتقلبات الحظ أكثر مما هو ثمرة تدبير الإنسان[٢]. أما أولئك الذين يجعلون "الخير الأسمى" في الفضيلة، فإنهم أقرب إلى الصواب؛ فهذه الفضيلة نفسها هي أمّ الصداقة وحارستها، وبدونها لا تقوم صداقة أصلًا.

٦. ٢١. فلنُتابع إذًا، ولنفسّر "الفضيلة" بما تعنيه في أحاديثنا اليومية وفي أعراف الناس، لا بتلك العبارات المتعجرفة التي يعتمدها بعض الفلاسفة، حيث يطبقون على الفضيلة مقاييس صارمة لا يعرفها واقع الحياة[٣]. ولنُدرج في عداد "الرجال الفضلاء" أولئك الذين يُعدّون كذلك بحسب المعيار المألوف للحياة ، كباولوس، وكاتو، وجالّوس، وسكيبيو، وفيلوس، إذ هم يلبّون ما يقتضيه العرف العام[٤]. أما أولئك الذين لا وجود لهم في الواقع، فلنترك الحديث عنهم جانبًا[٥].

٦. ٢٢. ولهذا، بين رجال من هذا الطراز الذي ذكرته آنفًا، تمنح الصداقة مزايا تكاد تعجز الكلمات عن حصرها. فكيف يتسنى للحياة أن تكون، كما يقول إنيّوس، "حياة تستحق أن تُعاش"،

---

[١] هذا التعريف يتجاوز الارتباط العاطفي أو النفعي، فهو يشير إلى: توافق عقلي وروحي (إلهي وبشري)، يقوم على الفضيلة، فهي علاقة تقوم على المحبة المتبادلة لا على المصالح. وهذا التعريف قريب جدًا من تعريف أرسطو للصداقة الفاضلة في الأخلاق النيقوماخية: "الصداقة الكاملة لا تكون إلا بين الفضلاء، المتشابهين في الفضيلة".

[٢] هذا الترتيب ينسجم مع الفكر الرواقي الذي يجعل الفضيلة وحدها خيرًا حقيقيًا، ويرى كل ما عداها (صحة، مال، شهرة) خاضعًا لتقلبات الحظ.

[٣] يعارض شيشرون الرؤية الرواقية الصارمة التي تعتبر أن "الفضيلة" لا تنطبق إلا على "الحكيم الكامل"، وهو في نظرهم شخص نادر أو غير موجود إطلاقًا. بالمقابل، يدعو شيشرون إلى اعتماد مفهوم عملي للفضيلة، مستمد من الحياة اليومية ومن التقاليد الرومانية. وهذا يمثّل انحياز شيشرون للنزعة العملية مقابل التجريد الرواقي.

[٤] اختياره لأسماء مثل باولوس، وكاتو، وسكيبيو يوحي بأنه يريد أن يُرسّخ نموذجًا أخلاقيًا وطنيًا رومانيًا، لا مثاليًا يونانيًا. فتلك الشخصيات مشهورة بالنزاهة والشجاعة في الحياة السياسية والعسكرية. وهذا يتوافق مع فكر شيشرون الذي يربط بين الفضيلة والخدمة العامة.

[٥] هذه العبارة تهكّمية تشير إلى نموذج الحكيم الكامل عند الرواقيين الذي يعتبره شيشرون ضربًا من الخيال.

إذا لم ترتكز على المودّة المتبادلة بين الأصدقاء، فما أعذب أن يكون لديك من تجرؤ أن تفتح له قلبك كما لو كنت تكلّم نفسك؟ وما قيمة الثمرة العظيمة لنجاحك إن لم تجد من يفرح بها كفرحك تمامًا؟

أما في المحن، فكم تكون أثقل دون ذاك الصديق الذي يشعر بألمك أشد مما تشعر به أنت[١]؟ وخلاصة القول، فإن كل الرغبات الأخرى في الحياة لها غاية واحدة تقريبًا: الثروة من أجل الإنفاق، والنفوذ للوجاهة، والمنصب العام للشهرة، واللذّة للإشباع، والصحة لسلامة الجسد؛ أما الصداقة، فغاياتها لا تُعدّ، وهي معك حيثما اتجهت، لا يُغلق في وجهها باب، لا تأتي في غير أوان، ولا تُعدُّ عبئًا[٢]. ولهذا، لا نلجأ إلى "الماء والنار"[٣]، كما يقولون، أكثر مما نلجأ إلى الصداقة. ولست أعني هنا تلك الصداقة العامة الشائعة — على عذوبتها ونفعها — بل أعني تلك الصداقة التي لا تشوبها شائبة، كصداقة هؤلاء القلّة الذين ذاع صيت صداقتهم. إذ تضفي الصداقة رونقًا أشد إشراقًا، وتُخفّف من وطأة الشدائد بتقاسمها ومشاركتها.

٧. ٢٣. بما أن الصداقة تضم في طيّاتها العديد من المنافع الكبرى، فإنها بلاشك تتفوق على كل الأشياء الأخرى، لأنها تضيء بالأمل الصادق طريق المستقبل، ولا تسمح للنفوس أن تضعف أو تنهار. إذ من يتأمّل صديقًا حقيقيًا، فكأنما يتأمّل صورة لنفسه[٤]. ولهذا فإن الأصدقاء الغائبين يبدون كأنهم حاضرين، والمحتاجون كأنهم موسرين، والضعفاء كأنهم أقوياء، بل – وما أصعب

---

[١] يرى شيشرون أن الصداقة ليست مجرد "علاقة نفعية" أو حتى "علاقة محبة"، بل هي ركيزة أساسية للحياة. فالصداقة تخفف عنّا الألم، وتضاعف أفراحنا، وترافقنا في كل ظرف، وهي ليست عبئًا ولا عبثًا. وهذا لا ينقض الفكرة الرواقية بل يُلطّفها. ففي الرؤية الرواقيّة، قد تبدو الصداقة شيئًا ثانويًا، أما عند شيشرون، فهي غاية في ذاتها، لا نتيجة جانبية للحكمة.

[٢] يقارن شيشرون بين الصداقة وبين الثروة، والمنصب، واللذة، والصحة... وكلّها وسيلة لشيء واحد. أما الصداقة وحدها فتخترق كل مجالات الحياة، وتتّسع لكل لحظة. وهنا يُحاكي منطق الخطابة الأرسطية (Rhetorica) حيث تقديم الصور المتقابلة، والتحكيم بين القيم.

[٣] الماء والنار يُضرب بهما المثل كمثال على العناصر الأساسية للحياة، فلا حياة بدونهما.

[٤] عبارة شيشرون (من يتأمل صديقه، كأنه يتأمل نموذجًا من نفسه) هذه العبارة تكاد تكون اقتباسًا مباشرًا من أفكار أرسطو في كتابه الأخلاق النيقوماخية، حيث يرى أن "الصديق مرآة لنفسك"، وأن أعظم أشكال الصداقة هو صداقة الفضيلة، حيث ينعكس الخير المشترك في كل من الصديقين.

قول هذا – فإن الأموات منهم يظلون أحياء، لما يناله الصديق من شرفٍ وذكرى وشوق في قلوب أصدقائه[١]. ولهذا يُعدّ موتهم موتًا سعيدًا، وتُعدّ حياة أصدقائهم حياة جديرة بالثناء. فإن أنت نزعت من طبيعة الأشياء رباط المودّة، فلن تبقى أسرة، ولا مدينة، بل حتى الزراعة لن تُمارَس[٢]. فإن لم تكون الأمور واضحة في إدراك ما في الصداقة والوئام من قوّة، فإن إمعان التفكير في عواقب البغضاء والنزاع يكشف لنا ذلك أوضح كشف. إذ ما هو البيت الذي يبلغ من القوة، أو ماهي الدولة عظيمة الرسوخ التي لا يمكن الإطاحة بها على الإطلاق بفعل الأحقاد والانقسامات؟[٣] ومن هنا يُقدَّر كم الخير الكامن في الصداقة.

٧. ٢٤. يُروى عن فيلسوف حكيم من أهل أجريجينتوم[٤] أنه تنبّأ، في أبياتٍ يونانية، بأن كلّ ما في الطبيعة وفي الكون كله، سواء مما هو ساكن أو متحرّك، إنما يجمعه رباط المودة، ويفرقه النزاع. وهذا القول، في الحقيقة، يدركه الجميع، ويبرهنون عليه بالأفعال. ومن هنا، إن حصل أن صديقًا

---

[١] كان الرواقيون يؤمنون بأن القيم الخيّرة مثل الوفاء والذكر الطيب لا يمحوها الموت.

[٢] هذه العبارة تتقاطع مع النظرة الرواقية والسياسية لأهمية الصداقة، حيث تُعتبَر الروابط الأخلاقية – كالود والاتحاد – هي الركيزة التي تنهض عليها المجتمعات. فنزع المودّة، بحسب شيشرون، لا يؤدي إلى تدهور العلاقات الشخصية فقط، بل إلى تفكك الحضارة نفسها.

[٣] من خلال المقارنة بين حضور الصداقة وآثار غيابها، يؤكد شيشرون أن الاتحاد أعظم من الانقسام، وأن كل استقرار هو وليد الصداقة، وكل دمار وليد الشقاق.

[٤] يشير شيشرون إلى الفيلسوف إمبيدوكليس Ἐμπεδοκλῆς ، الذي يقول إن المحبة φιλότης والبغضاء νεῖκος في حالة صراع دائم، فمن خلالهما تتحد عناصر الكون الأربعة (النار، الهواء، الماء، والتراب) أو تتفرق عن بعضها البعض، حيث يقول:

ἄλλοτε μὲν φιλότητι συνερχόμεν' εἰς ἓν ἅπαντα,
ἄλλοτε δ' αὖ δίχ' ἕκαστα φορεύμενα νείκεος ἔχθει.

"حينًا تجتمع كلها (أي العناصر الأربعة) في واحدٍ بفعل المحبة (φιλότης) ،
وحينًا آخر، يفرقها البغض (νεῖκος) فتحملها الخصومة كلًا إلى جهة".

وشيشرون هنا لا يهتم ببنية الكون المادية التي يقول بها إمبيدوكليس، بل يُسقط هذه الفكرة على المجال الأخلاقي والاجتماعي: فكما أن المحبة (φιλότης) تُجمع العناصر وتُحدث الانسجام الكوني، فإن الصداقة والوفاق تجمع الناس وتشكل المدينة والمجتمع. وكذلك، كما أن النزاع (νεῖκος) يفرّق بين عناصر الطبيعة، فإن العداوة والانقسام تهدّم البيوت والمدن. أي أن شيشرون يطبّق ميتافيزيقا إمبيدوكليس على المجال السياسي–الإنساني، فيرى في الصداقة قانونًا من نواميس الطبيعة، وليس مجرّد فضيلة.

قام بواجبه في وقت الخطر، إما بالمشاركة أو التحمّل، فمَن ذا الذي لا يُغدق عليه أعلى ألوان الثناء؟ أما عني، فما نسيت بعدُ صدى الهتاف الذي دوّى في قاعة المسرح مؤخرًا، عند عرض مسرحية جديدة لصديقي ومضيفي ماركوس باكوڤيوس[1]! في مشهد منها، بينما كان الملك يجهل أي الرجلين هو "أوريستيس"، بادر "بيلاديس" مدعيًا أنه هو، كي يُقتل عوضًا عن صديقه؛ بينما أصرّ "أوريستيس"، كما هو حق، على أنه هو ذاته[2]. في مشهد كهذا، وقف الجمهور وصفق على موقف خيالي! فماذا لو كان الموقف حقيقيًا؟ كانت الطبيعة نفسها تُظهر قوتها بسهولة، عندما كان البشر يرون أن ما لا يستطيعون فعله بأنفسهم، فإنه قد يتم بشكل صحيح من شخص آخر[3]. وهكذا، أظن أني قد عرضت وجهة نظري في الصداقة. وإن كانت ثمة أمور أخرى – وأحسبها كثيرة – فاسألوا عنها من يطيقون التنظير في مثل هذه المسائل.

٧. ٢٥. **فانيوس:** لكنّا نفضل أن نسمع هذا منك؛ وإن كنتُ قد سألتُ عن ذلك مرارًا من أولئك الآخرين، وسمعتُ منهم، ولا أنكر أني كنت أستمع إليهم برضًا؛ لكن حديثك أنت ذا طابع مختلف نوعًا ما.

سكايڤولا : كنت ستقول ذلك بثقة أكبر، يا فانيوس، لو كنت حاضرًا مؤخرًا في حدائق سكيبيو[4]، حين جرى النقاش حول شؤون الدولة (محاورة الجمهورية). فكم كان (لايليوس) في ذلك الحين نصيرًا للعدالة! وكيف ردّ على حديث فيلوس المسهب!

فانيوس: ذلك كان أمرًا يسيرًا، بالطبع، أن يدافع عن العدالة رجلٌ هو أكثر الناس عدالةً[5].

---

[1] ماركوس باكوڤيوس شاعر تراچيدي روماني (٢٠٠ –١٣٠ ق.م.).

[2] سبق أن ذكر شيشرون صداقة أوريستيس وبيلاديس ضمن أشهر صداقات في العالم القديم.

[3]يؤكد شيشرون على أن قيمة الصداقة متأصلة في الطبيعة البشرية. فحتى لو كان شخص ما غير قادر على أن يكون صديقًا جيدًا، فإنه يمتلك القدرة على تمييز الصداقة الحقيقية وتقديرها عند الآخرين. وهذا الاعتراف الداخلي بالصواب يثبت أن قوة الصداقة ليست مجرد فكرة مكتسبة، بل هي جزء طبيعي من فطرة الإنسان.

[4] الإشارة إلى حدائق سكيبيو تخلق مشهدًا أفلاطونيًا أرستقراطيًا مشابهًا لأكاديمية أفلاطون، حيث تُمزج السياسة بالفلسفة بالصداقة، في مكان بعيد عن صخب المدينة. وفيه تلميح إلى أثر الفضاء الطبيعي على صفاء الفكر.

[5] العدالة والصداقة ليستا فضيلتين منفصلتين؛ بل وجهان لقوة واحدة تحفظ النظام، سواء في الكون الطبيعي (عند إمبيدوكليس) أو في المجتمع الإنساني (عند شيشرون).

سكايڤولا : وماذا عن الصداقة؟ أليس من السهل أن يدافع عنها من اكتسب أعظم مجد بسببها، بعد أن حافظ عليها بأعلى درجات الولاء والثبات والعدل؟

٨. ٢٦. **لايليوس:** إنكما تمارسان عليّ ضغطًا حقيقيًا؛ فماذا يهمّ بأي طريقة تجبرونني؟ المهم أنكم تدفعونني، فحين يتعلق الأمر بحماس أصهاري، لا سيما في موضوع جيد كهذا، فمن العسير، بل ومن غير المنصف، أن أقاوم.

لذلك، حين كنت أفكر كثيرًا في أمر الصداقة، غالبًا ما كان يتبادر إلى ذهني أمرٌ مهم يجب النظر فيه: هل وُجِدت الصداقة بسبب الضعف والعوز؟ بحيث يتبادل الناس الخدمات والمنافع، فيأخذ كلٌّ منهم ما يعجز عن فعله بنفسه، ويرده للآخر بالمثل؟ أم أن هذه الغاية وإن كانت جزءًا من الصداقة، فإن لها سببًا آخر أقدم وأجمل، سببًا أفرزته الطبيعة نفسها[1].

فالمحبة (amor) — التي اشتُق منها اسم الصداقة (amicitia) — هي الأصل الأول في توحيد القلوب بالود[2]. أما المنافع، فإنها كثيرًا ما تُجنى حتى ممن لا يحملون محبة حقيقية، وإنما يتظاهرون بها من أجل ظرفٍ عابر. أما في الصداقة الحقيقية، فلا يوجد زيف، ولا تكلّف؛ وما يوجد فيها، فهو صادق وطوعي بالكامل.

٨. ٢٧. ومن ثم يبدو لي أن الصداقة تنبع من الطبيعة أكثر مما تنشأ عن الحاجة، ومن ميل الروح للارتباط بشعور بالمحبة أكثر من كونها حسابًا للمنافع التي من المحتمل أن تمنحها الصداقة. ويمكنك أن ترى هذه الحقيقة حتى عند بعض الحيوانات، التي تُحب صغارها في فترة ما، ويبادلها الصغار ذلك الحب، بما يكشف بوضوح عن وجود إحساس عاطفي لديها[3]. أما عند الإنسان، فالأمر أوضح وأقوى؛ فأولًا في المحبة التي تجمع الوالدين بأولادهما، والتي لا يمكن انتزاعها إلا بجريمة شنيعة. ثم حين يولد نفس الشعور العاطفي تجاه صديق، حين نلتقي بشخص

---

[1] يستخدم شيشرون المقابلة الجدلية: هل الصداقة تقوم على الحاجة والمنفعة؟ أم أنها نتيجة حب طبيعي، سابق على المصلحة؟ لكن لايليوس (وهو صوت شيشرون الحقيقي) يدافع عن فكرة أن الصداقة قيمة نابعة من الطبيعة، وأن أصلها هو المحبة، لا المصلحة.

[2] أي أن الاسم نفسه يدل على أن الحب هو أصل العلاقة، لا المنفعة.

[3] الحيوانات تحب أبناءها بلا دافع منفعي، فالمحبة هنا غريزية وطبيعية.

يتناغم معنا في الطباع والمزاج، فنحس فيه ببريقٍ ما من الاستقامة والفضيلة، وكأننا نلمح فيه نورًا داخليًا يدلنا على صلاحه[١].

٨. ٢٨. لأنه ليس ثمة شيء أحب إلينا من الفضيلة، فهي تجذبنا بقوة إلى المحبة، إذ إننا، بفضل فضيلة البعض واستقامتهم، نحب أحيانًا من لم نرهم قط. فمن ذا الذي لا يستعيد ذكرى جايوس فابريكيوس أو مانيليوس كوريوس[٢] بشيء من المودة والعطف، رغم أنه لم يرهم قط؟ ومن ناحية أخرى، من ذا الذي لا يمقت تاركوينيوس المتكبر[٣] أو سبوريوس كاسيوس أو سبوريوس مايليوس[٤]؟ لقد كان لنا كفاحًا كبيرًا ضد قائدين أجنبيين من أجل الهيمنة على أرض إيطاليا، بيرهوس[٥] وهانيبال، فيما يخص الأول، فبفضل عدله واستقامته لا نحمل له عداوة كبيرة؛ أما الآخر فبسبب قسوته سوف تكرهه هذه الدولة على الدوام.

٩. ٢٩. ولكن إذا كانت النزاهة تتمتع بقوة عظيمة لدرجة أننا نحبها حتى في أولئك الذين لم نرهم قط، بل، وما هو أعظم، حتى في العدوّ، فما العجب في أن تتحرك نفوس البشر عندما يرون الفضيلة والصلاح في أولئك الذين يمكنهم أن يرتبطوا بهم ويقتربوا منهم؟ وإن كان الحب يترسّخ بالعطاء المقبول، وبالاهتمام المُلاحظ، وبالعِشرة الملازمة، فإنّ اجتماع هذه العوامل إلى تلك الشرارة الأولى التي يشعلها الإعجاب، يولّد اتّقادًا مذهلًا من المحبّة الصادقة.

ومن يرى أن الصداقة تنبع من الضعف، ومن الحاجة إلى من يعين على بلوغ ما نرغب فيه، فهو لا شكّ ينسب إلى الصداقة أصلًا وضيعًا، لا نُبْل فيه ولا رُقيّ، إن صحّ التعبير، إذ يجعلها وليدة

---

[١] ينتقل بعد ذلك إلى أقوى رابطة حب طبيعية بين البشر، الوالدين والأبناء، فهذه المحبة لا يمكن أن تُمحى إلا بجريمة مروعة، وهنا تلميح إلى أن الصداقة الصادقة تشبه هذه الرابطة في نقائها ورسوخها؛ وتتشكل هذه الصداقة حين نلتقي بشخص يتفق معنا في الطبع والخلق.

[٢] جايوس فابريكيوس ومانيليوس كوريوس رمزان رومانيان للفضيلة والاستقامة، اشتهرا بتواضعهما ونزاهتهما، وخاصة في مقاومة الإغراءات المادية.

[٣] آخر ملوك روما، وكان طاغية مستبد.

[٤] سبوريوس كاسيوس وسبوريوس مايليوس اتُّهِما بمحاولة الانقلاب على الجمهورية والعودة إلى الملكية.

[٥] ملك إبيروس ومن أقوى خصوم روما.

فقرٍ وعوز. ولكن لو كان الأمر كذلك (أي لو كانت الصداقة قائمة على الضعف)، لكان كل من يرى في نفسه ضعفًا هو الأنسب للصداقة؛ وهذا بعيد كل البعد عن الواقع[1].

٩. ٣٠. فإنّ الإنسان، كلما زادت ثقته بنفسه، وكلما تحصّن بفضيلته وحكمته بحيث لا يحتاج إلى أحد، وكلما رأى أن كلّ ما يملك يكفيه في ذاته — كان أقدر الناس على طلب الصداقة، وعلى رعايتها في أسمى صورها. وماذا تظنّ؟ أكان أفريكانوس بحاجة إليّ؟ بحق هرقل! لا شئ على الإطلاق، ولا أنا كنت بحاجة إليه. لكنّي أحببته لإعجابي الشديد بفضيلته، وهو — على الجانب الآخر — أحبّني، ربّما لما كان يراه فيَّ من خصالٍ حسنة. والعِشرة زادت تلك المحبة. ومع أن منافع كثيرة وجليلة نشأت عن صداقتنا، فإنها لم تكن الدافع إليها، ولا باعثًا على المحبة[2].

٩. ٣١. لأنه كما أننا نتسم بالسخاء والكرم لا طمعًا في شكرٍ أو جزاء فنحن لا نعطي كمن يُقرض معروفًا، بل بدافع من طبيعةٍ مائلة إلى السخاء، وكذلك نطلب الصداقة، لا رجاءً في مردودٍ، بل لأنّ ثمارها تكمن في المحبة ذاتها.

---

[1] الفقرة دفاع فلسفي رفيع عن الطبيعة النبيلة للصداقة، ضد الرأي القائل إنها تنبع من الحاجة أو المصلحة. حيث يبدأ النص بملاحظة عن قوة الفضيلة: فالإنسان يحب الفاضلين حتى لو لم يَرَهم قط، بل حتى لو كانوا أعداءه، وهذه مقدمة تمهّد للقول إن الفضيلة هي العنصر الأول في بزوغ الصداقة. ثم يتوسّع في القول إن الفضيلة، متى اقترنت بالعطاء، والغيرة، والمعاشرة، تُلهب شرارةً تتحول إلى عظمة المحبة الخالصة. ثم ينتقد وجهة النظر النفعية التي ترى أن الصداقة وليدة الضعف والفقر ،ويصف هذه النظرة بأنها منشأ وضيع وغير شريف. ويختم كلامه بحجة داحضة: لو كانت الصداقة ثمرة الحاجة فقط، لكان أضعف الناس أكثرهم أهلية لها، وهو ما يخالف التجربة تمامًا. وخلاصة القول فإن الفضيلة والصلاح virtus et bonitas ، هما الأساس في بناء الصداقة في فكر لايليوس، وأن هناك ثلاث دعائم تقوّي الحب الأولي: العطاء beneficium، الاهتمام studium، والعِشرة consuetudo . وهذه الفقرة تمثّل أحد أوجه الفلسفة الرواقيّة المتأخرة المتصالحة مع الأخلاق الاجتماعية: حيث تكون الصداقة امتدادًا طبيعيًا للعقل الفاضل، لا نتيجة لمصلحة عارضة. وهي تتعارض مع النظرة الإبيقورية للصداقة التي لا تنكر النفع، بل تجعل منه حجر الزاوية.

[2] يستشهد لايليوس بعلاقته بسكيبيو باعتبارها علاقة نموذجية، فهي لم تكن قائمة على نفع متبادل، بل على إعجاب متبادل بفضائل الطرفين، وقد زادت المحبة بالعِشرة، ثم يقرّ بوجود منافع متبادلة، لكنه أنها ثمرة الصداقة، لا بذرتها. وهذه الفقرة تعكس صدى قويًا لفلسفة الرواقيين، الذين يَرَون أن الحكيم الكامل لا يحتاج لأحد، ومع ذلك يصادق لأنه يحب الفضيلة في غيره.

٩. ٣٢. من هذا المنظور فإن أولئك الذين يرجعون كل شيء إلى اللذّة، كما تفعل البهائم، بعيدون كلّ البعد عن حديثي هذا — وليس ذلك بعجيب؛ فإن من ألقى كل فكره في شيءٍ وضيعٍ محتقر، لا يستطيع أن يرفع بصره إلى شيء سامٍ ونبيل وإلهيّ[١].

فلنصرف هؤلاء عن مجال حديثنا، ولنلتفت نحن إلى أنّ طبيعة الإنسان تميل إلى المحبة، وإلى مودّةٍ تنشأ عند بزوغ علامات الصلاح في الآخرين. فمتى لمح أحدهم هذا النور من الاستقامة، انجذب إليه، واقترب ليُصغي ويُعايش ويُحاكي طباع من أحبّ. وتقوم العلاقة إذّاك على التكافؤ في الحب، وعلى التنافس الشريف في الإحسان، حيث يبادر كلّ إلى الإحسان أكثر من مطالبته به. وهكذا فإن المنفعة العظمى يمكن إدراكها من خلال الصداقة، أما عن أصلها فبسبب أنها ناشئة عن الطبيعة أكثر من كونها احتياج الشخص لعون الآخرين، وستصير أكثر تبجيلًا وأكثر اتفاقًا مع الصواب، ولو أن المصلحة وحدها هي ما يشدّ الصداقة، لفرّقتها المصلحة حين تتغيّر؛ لكنّ الطبيعة لا تتبدّل، ولهذا تدوم الصداقات الحقيقيّة أبدًا. وهكذا ترون، من أين تنبع الصداقة... ما لم يكن عندكما اعتراض؟

فانيوس: رجاءً واصل حديثك، يا لايليوس، ولسوف أرد بالنيابة عن صديقي في هذا الصدد، فلدي الحق في فعل ذلك، إذ إنه يصغرني سنًا.

٩. ٣٣. **سكايڤولا** : أحسنت القول حقًا (يا فانيوس)؛ إذن دعونا نصغي السمع.

١٠. ٣٣. **لايليوس:** اصغوا السمع إذن، يا خير الرجال، للموضوعات التي كثيرًا ما كنت أناقشها مع سكيبيو عند الحديث عن الصداقة. فقد اعتاد هو أن يقول: لا شيء أصعب من أن تدوم الصداقة إلى آخر العمر. فكم من مرة لا تتوافق الرغبات، أو تختلف الآراء في شؤون الدولة[٢]. بل كثيرًا ما تتبدّل أخلاق الناس: تارةً بسبب الشدائد، وتارةً مع تقدّم العمر. وكان يضرب لذلك مثلاً

---

[١] يشن شيشرون هجوم قاسي على الفلسفة الإبيقورية ويصورهم بأنهم كالبهائم، ويخرجهم من الحظيرة الإنسانية. ويصفهم بأنهم لا يقدرون على تصور أي شيء سامٍ أو نبيلاً وإلهيّ، لأن عقولهم عالقة في بالأرض. ومن ثم يقدم فلسفة الصداقة النبيلة، فالحب لا يُبنى على المنفعة بل على الإعجاب بالفضيلة؛ فالصداقة النابعة من النفع عابرة، أما النابعة من الطبيعة والفضيلة فهي دائمة.

[٢] هذه لفتة ذكية حين يذكر اختلاف الرأي في شئون الدولة كأحد أسباب تآكل الصداقة. وهذا يوحي بأن العمل العام والسياسة تُختبر فيه الصداقات بحدة، وربما تنكسر.

من حياة الصبا، إذ يرى أن أعظم الحب بين الفتيان، ينتهي غالبًا مع ارتداء عباءة الرجولة أي عند بلوغهم، كما تنقضي مرحلة الطفولة نفسها[١].

١٠. ٣٤. ولكن حتى لو أن الصداقة امتدت إلى سنّ الشباب، فإنها قد تنفصم عراها أحيانًا بسبب خلاف على زواج، أو على مصلحةٍ ما، لا يمكن لكليهما أن ينالها. لكن إن بلغا مرحلةً أبعد من ذلك في صداقتهما، فغالبًا ما تتصدع أركانها إذا دخلا في منافسة على منصب. والحق إنه لا يوجد طاعون أشدّ على الصداقة لدى العوام من الرغبة في المال، أما بالنسبة للنبلاء فالتنافس على المنصب الرفيع والمجد. ومن هنا، كثيرًا ما نشأت أعظم العداوات بين من كانوا أشدّ الأصدقاء[٢].

١٠. ٣٥. تنشأ أيضًا خلافات عظيمة، وكثيرًا ما تكون مشروعة، حين يُطلب من الصديق ما لا يليق، كأن يُستخدم خادمًا للشهوة، أو معينًا على الظلم[٣]. فإن رفض، وإن فعل ذلك بشرف، يُتَّهم من قِبَل من رفض طاعتهم بأنه تخلّى عن حقّ الصداقة. أمّا أولئك الذين يجرؤون على طلب أي شيء من صديقهم، فإنهم بطلبهم ذاته، يُعلنون استعدادهم لفعل كل شيء من أجله. وشكاوى من هذا النوع، حين تتكرّر وتطول، لا تؤدي فقط إلى إطفاء جذوة المودّة، بل تولّد كراهياتٍ أبدية. ومن

[١] يعمّق شيشرون المعنى بهذه الصورة فعندما يخلع الطفل ثوب الطفولة، يخلع معه أيضًا مشاعره البسيطة والعفوية — ومنها صداقات الطفولة. وهذه الصورة تقرّب المفهوم الفلسفي من واقع الناس، وتجعل تغيّر العلاقات شيئًا مألوفًا.

[٢] يعمّق لايليوس رؤية سكيبيو السابقة، فحتى وإن اجتازت الصداقة امتحان الطفولة، فهي معرضة للاهتزاز في مرحلة النضج بسبب المصالح. وهنا ينقسم هذا التهديد إلى نوعين: بالنسبة لعامة الناس يوجد التنافس على المال، وبالنسبة للنبلاء التنافس على المنصب السياسي والمجد، وهنا نلمح المفارقة: حتى الأفضل أخلاقيًا ليس في مأمن من الزلل. وتعد صورة "الطاعون" المجازية صورة تقليدية في الخطابة الرومانية لأي شيء فاسد ومدمّر. وهكذا يشير شيشرون إلى أن حتى الصداقات العميقة قد تنهار بسبب التنافس السياسي أو الاجتماعي، وكأنه يقول: "كلما ارتفعت منزلة المرء، زادت خطورة سقوط صداقاته. وبذلك ينتقل من رؤية مثالية للصداقة إلى تشخيص واقعي لأمراضها.

[٣] تشير هذه الفقرة إلى نماذج من الانحرافات التي قد يُطلب فيها من الصديق أن يُشارك في أمر غير أخلاقي أو في ظلم، فإن رفض، يُتّهم بخرق الصداقة، رغم أن رفضه نابع من استقامة لا من خيانة. وشيشرون يستعيد مجددًا فكرته المركزية: أن الصداقة لا يمكن أن تستمر إلا إن تأسست على الفضيلة المشتركة.

ثَمّ، يبدو لي أن مثل هذه العقبات الكثيرة، كأنها أقدار محتومة تتهدّد الصداقة، بحيث إن النجاة منها جميعًا ليست دليل حكمة فحسب، بل ضرب من ضروب الحظ العظيم.

١١. ٣٦. فلننظر، إن شئتم، إلى هذه النقطة أولًا: إلى أي مدى يجب أن يمضي الحبّ في الصداقة؟ هل إذا كان لكوريولانوس[١] أصدقاء، كان ينبغي لهم أن يحملوا السلاح معه ضد وطنهم؟ وهل كان يجب على أصدقاء ڤيكيلينوس[٢] أو مايليوس[٣] في سعيهما لأن يصبحا ملوكًا، أن يساعدونهما[٤]؟

١١. ٣٧. وقد رأينا تيبريوس جراكوس[٥]، وهو يعصف بالجمهورية، قد تخلّى عنه كوينتوس توبيرو[٦] وسائر رفاقه من أصدقائه. أما جايوس بلوسيوس[٧] من مدينة كوماي[٨]، وهو صديق لأسرتك يا سكايڤولا ، فقد جاء إليّ ذات مرة، لأنني كنت حاضرًا مع القنصلين لايناس[٩] وروبيليوس[١٠] ضمن

[١] كوريولانوس هو قائد روماني نُسبت له خيانة روما بعد نفيه، وتحالفه مع الأعداء (الڤولسكيين) لمهاجمتها.

[٢] سبوريوس كاسيوس ڤيكيلينوس Spurius Cassius Vecellinus أُتهم بالسعي إلى السلطة الملكية.

[٣] سبوريوس مايليوس Spurius Maelius يُقال إنه طمح إلى السلطة الملكية عبر كسب الجماهير بتوزيع القمح.

[٤] السؤال المطروح هنا هو سؤال الحدّ الأخلاقي للصداقة: إلى أي مدى يمكن أو ينبغي للمرء أن يذهب في ولائه لصديقه؟ هل الوفاء المطلق فضيلة، حتى لو أدى إلى الخيانة الكبرى؟ أم أن هناك سقفًا لا يمكن تجاوزه، حيث تنقلب الصداقة إلى جريمة؟ ومن الملاحظ أن شيشرون تدرج من الخيانة العسكرية إلى التآمر السياسي إلى الشعبوية الخطيرة، مما يعمّق الإحساس بالخطر الذي قد تسببه "الصداقة العمياء."

[٥] كان إصلاحيًا شعبيًا، سعى لتوزيع الأراضي وإصلاح النظام، مما جلب عليه سخط طبقة النبلاء الحاكمة.

[٦] كوينتوس أيليوس توبيرو فيلسوف رواقي من تلاميذ بانايتيوس وأحد أعضاء صالون سكيبيو الأدبي، واشتهر بتمسكه الصارم بالفضيلة.

[٧] كان من أنصار تيبريوس جراكوس المقربين، وانتهى به المطاف لاجئًا لدى ملك برجامون بعد فشل تيبريوس في مشروعه الزراعي.

[٨] هي أول مستعمرة يونانية من مستعمرات الماجنا جراكيا، وقد أسسها مواطنو يوبويا في القرن الثامن قبل الميلاد، وفي ذلك الوقت لم يكن سكانها يحملون الجنسية الرومانية، وكانت أسرة بلوسيوس تربطها صداقة قديمة بأسرة سكايڤولا.

[٩] بوبليوس بوبيليوس لايناس قنصل عام ١٣٢ ق.م. الذي قام بمحاكمة أنصار تيبريوس جراكوس، الذي قُتل في العام السابق. لكن جايوس جراكوس عند حصل على منصب نقيب العامة استصدر من مجلس الشيوخ قانونًا

مجلسهم الاستشاري، جاء طالبًا العفو عنه، ومعتذرًا بما يلي: "لقد كنت أقدّر تيبريوس جراكوس تقديرًا عظيمًا، حتى إنني كنت أرى أنه يجب عليَّ أن أفعل له ما يشاء، مهما كان". فقلت له: "حتى لو طلب منك أن تحمل مشاعل لإحراق الكابيتول؟" فأجاب: "لم يكن ليطلب مني ذلك قط؛ ولكن، لو شاء، لأطعتُه".

فأنتم ترون، يا سادة، ما أفظع هذا الكلام! وهو، بحقّ هرقل، لم يكتفِ بالطاعة، بل فاقها: إذ إنه لم يكتف بأن يتبع تيبريوس، بل صار له قائدًا، ولم يكن مرافقًا لجموح جراكوس، بل صار زعيمه. ولهذا، وبسبب جنونه هذا وشعوره بالخوف من تقديمه لمحاكمة استثنائية، فرّ إلى آسيا، وانضمّ إلى أعداء الدولة، ودفع ثمنًا باهظًا، مستحقًا، لخيانته للجمهورية. فلا عذر إذًا للذنب، إن كان ارتكابه من أجل صديق؛ فبما أن رأي الناس في الفضيلة هو ما يجلب الصداقة، فمن الصعب أن تبقى الصداقة إذا تخليتَ عن الفضيلة[1].

١١. ٣٨. ولكن إن نحن قررنا أن من الصواب إما أن نمنح الأصدقاء كل ما يرغبون فيه، أو أن نستخلص منهم كل ما نرغب فيه، فالأمر، لو افترضنا أننا قد أوتينا حكمة كاملة، لما كان في ذلك عيب. لكننا لا نتحدث عن أصدقاءٍ مثاليين، بل عن هؤلاء الأصدقاء الموجودين أمام أعيننا، الذين رأيناهم أو بلغتنا عنهم ذكريات، أولئك الذين تعرفهم الحياة اليومية. ومن هذه الطبقة الاجتماعية ينبغي لنا أن نأخذ أمثلتنا، وخاصةً من أولئك الذين يقتربون أكثر ما يكون من الحكمة[2].

١١. ٣٩. نرى أن بابوس أيميليوس كان صديقًا حميمًا للوسكينوس، هذا ما بلغنا عن طريق آبائنا، وقد شغلا منصب القنصلية معًا مرتين، وكانا زميلين في منصب الرقيب[3]؛ ويُروى أيضًا أنهما كانا،

بمحاكمة كل تسبب في إعدام مواطن روماني بدون محاكمة، فقام لايناس بالفرار خارج إيطاليا، ثم عاد مرة أخرى بعد مصرع جايوس جراكوس.

[10] بوبليوس روبيليوس قنصل عام ١٣٢ ق.م. وشريك لاينياس في محاكمة أنصار تيبريوس جراكوس.

[1] في هذه الفقرة يرسم شيشرون الخط الأحمر الفاصل في الصداقة: فالصديق الصالح لا يطيع في المعصية. والصديق الحقيقي يقاوم انحراف صاحبه، ولا يسير وراءه إلى الهاوية. الصداقة الحقة لا تعني الطاعة المطلقة، بل تعني أن نقف بجوار صديقنا ما دام مستقيمًا، أما إن انحرف، فواجبنا الأخلاقي أن نقف ضده، لا معه.

[2] هذا التحول من عالم المثال إلى عالم الواقع هو أسلوب كلاسيكي في التفكير الأخلاقي الروماني، حيث يعترف المتكلم بعلوّ المثال، لكنه يركز على القابلية للتطبيق العملي في الحياة اليومية.

[3] شغل الرجلان منصب القنصل عامي ٢٨٢ و ٢٧٨ ق.م. وشغلا معًا منصب الرقيب عام ٢٧٥ ق.م..

مع مانيوس كوريوس[١] وتيبريوس كورونكانيوس[٢]، في غاية الترابط معًا وبين بعضهم البعض. لذلك لا يمكننا حتى أن نشكّ في أن أحدًا من هؤلاء قد طلب من صديق شيئًا يخالف الأمانة أو القسم أو مصلحة الدولة. أما أن نقول إن مثل هذا الطلب، لو قُدم، لما لقي استجابة، فما فائدة ذلك مع رجال بهذه القداسة[٣]؟ إذ إن طلب شيء كهذا لا يقل فظاعة عن فعله نفسه. أما تيبريوس جراكوس، فقد كان يتبعه جايوس كاربو[٤]، وجايوس كاتو[٥]، كما تبعه شقيقه جايوس الذي لم يكن متحمسًا له في البداية ، ولكن صار بعد ذلك أشرس أنصاره[٦].

١٢. ٤٠. فلْيُسنّ إذن هذا القانون في الصداقة: ألا نطلب من الأصدقاء ما هو شائن، وألا نفعله إن طُلب منا. فإن الاعتذار عن ارتكاب فعل قبيح، هو اعتذار مشين، ولا ينبغي قبوله لا في سائر الذنوب، ولا سيّما إذا اعترف المرء بأنه فعل أمرًا يخالف مصلحة الدولة من أجل صديقه. فإن موقعنا، يا فانيوس وسكايڤولا ، يفرض علينا أن نبصر عن بُعد ما قد يطرأ من أحداث على الدولة. لقد انحرفت العادات الرومانية فعلًا عن مسارها وعن مجراها الذي رسمه السلف.

١٢. ٤١. لقد حاول تيبريوس جراكوس أن يستولي على الحكم، بل لعله قد حكم كملك فعلاً بضعة أشهر[٧]. فهل سمع الشعب الروماني بمثل هذا من قبل، أو رآه؟! وحتى بعد موته، فإن أصدقاءه وأقاربه، بما فعلوه ببوبليوس سكيبيو[٨]، لا أستطيع أن أذكره دون دموع. أما كاربو، فقد

---

[١] مانيوس كوريوس ديناتوس قنصل عام ٢٩٠ ق.م..

[٢] تيبريوس كورونكانيوس قنصل عام ٢٨٠ ق.م. ، وهو أول من تقلد منصب الكاهن الأعظم وهو من طبقة العامة، وقد شارك في الحرب ضد بيرهوس.

[٣] يشيد بأن هؤلاء الرجال لم يكونوا ليطلبوا من أصدقائهم شيئًا يخالف الشرف أو العهد أو الصالح العام. وشيشرون يرى أن الاشتباه في أنهم قد يطلبون شيئًا خاطئًا أمر غير وارد أصلاً.

[٤] جايوس بابيريوس كاربو نقيب العامة لعام ١٣١ ق.م. وهو من أشد مؤيدي مشروع قانون الإصلاح الزراعي.

[٥] جايوس بوركيوس كاتو حفيد كاتو الأكبر، وقنصل عام ١١٤ ق.م..

[٦] الشخصيات التي اختارها شيشرون كمناصرين لتيبريوس جراكوس هم، من وجهة نظر شيشرون، أقل نبلًا.

[٧] اتهم شيشرون تيبريوس جراكوس بمحاولة إقامة حكم ملكي – وهي أكبر تهمة يمكن أن تُوجّه لروماني في الجمهورية. وهو ما يعكس نظرة النخبة المحافظة التي رأت في إصلاحات الأخوين جراكوس خطرًا على النظام.

[٨] بوبليوس سكيبيو أيميليانوس (صهر تيبريوس ومعارضه) مات فجأة في ظروف غامضة، وهناك من اتهم أقارب وأصدقاء جراكوس بالتورط في قتله.

احتملناه – بقدر ما أمكن – نظرًا لقرب عهدنا بعقوبة تيبريوس جراكوس، وأما بشأن منصب جايوس جراكوس كنقيب للعامة، فلا أحب أن أستبق وأتنبأ. إن الشر حين يتسلل يبدأ بالتوسع؛ فإذا بدأ طريق الهلاك، اندفع فيه بلا توقف. أترون إلى الفساد الذي تفشّى في سجلات الاقتراع: بدأ أولاً بقانون جابينيوس، ثم بعد عامين بقانون كاسيوس[١]. أراها بأم عيني: الشعب صار مفصولًا عن مجلس الشيوخ، والأمور العظمى تُدار بمشيئة العامة. سيكون هناك من يتعلمون كيف تُصنع هذه الفوضى، أكثر ممن يتعلمون كيف يُقاومونها[٢].

١٢. ٤٢. ولماذا أقول هذا؟ لأن أحدًا لا يقدم على مثل هذه الأفعال دون أعوان[٣]. لذلك، يجب على الأخيار[٤] أن يُحذَّروا، فإذا ما سقطوا عن غير قصد في صداقات من هذا النوع، ألا يظنوا أنهم صاروا ملزمين بأن يتبعوا أصدقاءهم إذا أذنبوا في أمر جلل يتعلق بالدولة. وأما الأشرار، فيجب أن تُفرض عليهم عقوبة، ولا تكون أخف على التابعين منهم على القادة المباشرين في الجريمة[٥]. فمن كان أشهر من ثيميستوكليس في بلاد اليونان؟ أو أكثر سلطة؟ ذلك الذي، وهو قائد، حرّر اليونان من العبودية في الحرب الفارسية، لكنه نُفي من وطنه بسبب الحسد، فلم يحتمل ظلم وطنه الذي كان عليه أن يصبر عليه؛ ففعل كما فعل قبل عشرين سنة عندنا كوريُولانوس. ولم يُعثر لأحدٍ منهما على نصير يساعده ضد وطنه، ولهذا أنهى كلاهما حياته بنفسه[٦].

١٢. ٤٣. لذلك، فمثل هذا التواطؤ بين الأشرار لا ينبغي أن يُغطّى بذريعة الصداقة، بل يجب أن يُعاقَب عليه بأشد العقوبات، حتى لا يظن أحد أنه مباح له أن يتبع صديقًا يرفع السلاح في وجه

[١] هي قوانين أعطت الشعب سلطة أكبر على الانتخابات والقرارات، وشيشرون يراها مؤشرات على تآكل سلطة مجلس الشيوخ.

[٢] جملة موجعة ومتشائمة، تلخّص الأزمة الرومانية قبل السقوط: الناس تتعلّم الفوضى، لا كيفية مقاومتها.

[٣] تعكس هذه العبارة فكرة أن الخيانة ليست فردية، بل تحتاج شبكة دعم من الأصدقاء.

[٤] تعبير الأخيار يُطلق دائمًا على النبلاء.

[٥] يجب أن يعاقَب التابع كما القائد، لأن المشاركة بالخيانة تظل خيانة، حتى إن لم تكن من ابتداعك.

[٦] يقدم شيشرون أمثلة التاريخية: ثيميستوكليس وكوريُولانوس، ثيميستوكليس أنقذ اليونان من الفرس، لكنه نُفي، فلجأ إلى أعداء وطنه. وكوريُولانوس، روماني نبيل، طُرد من روما، فحاول العودة على رأس جيوش الأعداء. كلاهما انتهى إلى مصير واحد: لم يجد من يعاونه ضد وطنه، فانتحر. والعبرة من المثالين: لا قيمة للمجد الشخصي إذا انقلب صاحبه على وطنه. والحق أن المصادر التاريخية تنفي انتحار أي من الرجلين.

الوطن. وبالفعل، وبالنظر إلى الاتجاه الذي تسير فيه الأمور، لا أعلم إن لم يكن هذا أمرًا سيقع حقًا ذات يوم. أما أنا، فلا يقلقني حال الجمهورية اليوم بأكثر مما يقلقني حالها بعد وفاتي[١].

١٣. ٤٣. بناء على ذلك فلنُثبّت إذن هذا المبدأ الأول من مبادئ الصداقة: أن نطلب من الأصدقاء ما هو شريف فقط، وأن نفعل للأصدقاء ما هو شريف فقط، وذلك من دون انتظار أن يطلبوا منا فعله، ولتكن الحماسة موجودة على الدوام، وليغب التردد، ولتكن لديك الجرأة أن تسدي النصح المخلص بكل صراحة؛ ففي الصداقة دع تأثير الأصدقاء الناصحين الحكماء يكون له الأولوية، وليتم إسداء هذا النصح، ليس بإخلاص فحسب، بل وبصرامة وشدة – إذا دعت الفرصة– ، ولتنصاع للنصيحة إذا أُسديت إليك.

١٣. ٤٥. ذلك أن بعضًا ممن سمعتُ أنهم يعُدّون حكماء في اليونان – وأظن أن هذا القول كان يروق لهم – قالوا آراءً عجيبة (هم الذين لا شيء يعجزهم عن تقصّيه بحججهم): قالوا إنه ينبغي على المرء أحيانًا أن يتجنب علاقات الصداقة المفرطة، حتى لا يضطر الإنسان إلى القلق من أجل الكثيرين؛ فلكل امرئٍ من الهموم ما يكفيه وزيادة، فالانشغال بهموم الآخرين أمر مرهق جدًا؛ وأنه من الأسلم أن تُمسَك بزمام الصداقة كما تمسك لجام الحصان بيدٍ رخوة، بحيث يمكنك أن تشده حين تشاء، أو ترخيه حين تشاء؛ إذ إن مفتاح السعادة في الحياة هو راحة البال، ولا يمكن للنفس أن تنعم بها، إن كان يعيش في توتر دائم وكأنه يَحملُ هموم الجميع.

١٣. ٤٦. ويُروى عن آخرين – وقد أشرت إلى رأيهم سريعًا قبل قليل – أنهم ذهبوا إلى رأيٍ أشد قسوة وجفاء: أن الصداقات ينبغي أن تُبتغى لا بدافع المودة والمحبة، بل لحاجة الإنسان إلى العون والحماية. ولذلك، قالوا، كلّما قلّت في المرء القوة والثبات، ازداد تشبثه بالصداقات؛ وهكذا، بحسب هذا الرأي، فإن النساء أكثر طلبًا للصداقات من الرجال، والفقراء أكثر من الأغنياء، والمبتلين بالمحن أكثر من الذين يُعدّون سعداء.

---

[١] هذه الفقرة تُعدّ ذروة التحذير السياسي في الرسالة. فبعد أن بيّن الحدود الأخلاقية للصداقة، يربطها مباشرة بمصير الجمهورية، ويؤكد أن خيانة الوطن بحجة الولاء لصديقٍ خائن ليست فقط خطيئة أخلاقية بل جريمة. ويلمّح شيشرون إلى أن مثل هذه الخيانة قد تصبح واقعًا في المستقبل، نظرًا للانحدار السياسي. وهذا نذير لما ستؤول إليه الجمهورية في نهايات القرن الأول ق.م، من صراع داخلي وحروب أهلية.

١٣. ٤٧. يا لها من حكمةٍ عظيمة تلك التي يدّعونها! فإنهم، إذ ينفون الصداقة من الحياة، كأنما ينزعون الشمس من الكون[١]؛ إذ لا شيء أعظم من الصداقة منحته لنا الآلهة الخالدة، ولا شيء أطيب منها. فما "راحة البال" التي يتحدثون عنها؟ إنها في الظاهر مغرية، ولكنها في الحقيقة، في مواقف كثيرة، تستحق أن تُرفض. إذ ليس من المقبول، بدعوى البحث عن راحة النفس، أن يمتنع الإنسان عن القيام بعمل شريف، أو أن يتخلّى عنه بعد أن شرع فيه. فإن كنا نهرب من الهمّ، فعلينا أيضًا أن نهرب من الفضيلة! لأن الفضيلة، بطبيعتها، تقترن بشيء من الهمّ، إذ لا بد لها أن ترفض وتُبغض ما يخالفها: كما ترفض الطيبة الشر، والعفّة الشهوة، والشجاعة الجبن. ولهذا ترى الصالحين أكثر الناس ألمًا من الظلم، والشجعان أشدّهم جزعًا من الجبن، والعفيفين أعظمهم مقتًا للفجور. فالسلوك القويم لا يكتمل إلا في النفس السليمة التي تفرح للخير وتحزن للشرّ.

١٣. ٤٨. فإذا كان الحزن — ولا شك في ذلك — يصيب حتى الحكيم، ما لم نرَ فيه إنسانًا منزوع الإنسانية، فبأي منطق تُستأصل الصداقة من الحياة، خشية ما قد تجلبه من مشقة؟ فأي فرق يبقى، إذا انتُزع التأثر النفسي، ليس فقط بين الإنسان والحيوان الأعجم، بل بين الإنسان وكتلة من خشب أو حجر أو ما شابههما من الجمادات؟ إن أولئك الذين يتصوّرون الفضيلة صلابةً قاسية كأنها من حديد، لا يُصغى إليهم. إذ الفضيلة، وإن كانت صارمة في مواطن كثيرة، فإنها في الصداقة رقيقة مرنة، تنبسط مع أفراح الصديق، وتنكمش مع أحزانه. لذلك، فإن هذا القلق الذي يستولي على النفس من أجل الصديق، لا يكفي ليُبرّر نفي الصداقة من الحياة، تمامًا كما أن الفضائل لا تُنكر، رغم ما قد تحمله من متاعب وهموم.

١٤. ٤٨. وحين تنشأ الصداقة — كما ذكرت سابقًا — فإنما تنشأ حين تلوح بارقة من الفضيلة، فينجذب إليها قلب مشابه، ويلتحم بها. وحين يقع هذا اللقاء، فلا بدّ للحبّ أن يولد.

١٤. ٤٩. لأنه ما الشيء الأكثر عبثًا من أن يسرَّ المرء بأشياءَ غير حية كثيرة، مثل: المنصب، والمجد، والمبنى، والملابس، وزينة الجسد، بينما لا يسرُّ كثيرًا بكائنٍ حيٍّ يتحلى بالفضيلة، الذي يستطيع إما أن يحبَّ أو – إذا جاز التعبير – أن يقابل الحب بالحب؟ إذ لا شيء أكثر متعةً من مقابلة الودِّ بالودِّ، ولا شيء ألذَّ من تبادل المشاعرِ والخدمات.

---

[١] افتتح شيشرون هذا المقطع بتشبيه بالغ الجمال: فمن ينزع الصداقة من الحياة، كمن ينزع الشمس من العالم. الصداقة، في نظره، ليست ترفًا ولا عاطفة عارضة، بل عنصر كوني أساسي يمنح الحياة نورها ودفأها.

١٤. ٥٠. وإن أضفنا إلى ما سبق ما يمكن بحق إضافته — وهو أن لا شيء يجتذب الأشياء إليه ويشدّها بقوة كما تفعل المشابهة مع الصداقة — فسيُسلّم الجميع إذن بأن القول صحيح: أن الصالحين يحبّون الصالحين، ويضمونهم إليهم كما لو كانوا أقارب، بل كما لو جمعتهم رابطة الطبيعة ذاتها. فما من شيء أشد ميلًا إلى أشباهه، ولا أكثر توقًا إلى اجتذابهم، من الطبيعة. وعليه، فليثبت هذا — كما أظنه واضحًا يا فانيوس وسكايڤولا — أن المودة بين الأخيار تنشأ بينهم كما لو كانت ضرورة، إذ هي نابعة من نبع طبيعي، هو عين الصداقة. ولكن هذه الخيرية تمتد أيضًا إلى الجمهور. فالفضيلة ليست باردة القلب، ولا معزولة، ولا متعجرفة؛ بل هي بطبيعتها تحمي الشعوب كلها، وتسعى إلى خيرهم. وما كانت لتفعل ذلك، لو لم تكن مشبعة بمحبة الناس.

١٤. ٥١. بل إنني أعتقد، في قرارة نفسي، أن أولئك الذين يتصوّرون أن الصداقات تُصنع لأجل المنفعة، إنما يقوّضون أجملَ رباط في الصداقة، ويمحون جوهرها. فما يبهج في الصداقة ليس ما يُجنى منها، بل الحبّ نفسه الذي يربطنا بالصديق. ولا يكون العطاء الذي يأتي من الصديق مُفرِحًا إلا إذا أتى عن رغبة ومحبّة. بل الواقع أن الصداقة تُبنى لا على الحاجة، بل على السعة، ولهذا تجد أن الذين يملكون من المال والجاه، بل ومن الفضيلة — حيث تكمن القوة الحقيقية — هم الأكثر سخاءً وعطاءً. وربما، بل لعلّ الأمر كذلك، لا يحتاج الصديق في الحقيقة إلى شيء على الإطلاق. فهل كانت علاقتي بسكيبيو لتضعف لو لم يحتج قطّ إلى رأيي، أو إلى جهدي، سواء في بيته أو في ميدان المعركة؟ إذًا، لم تكن المنفعة سببًا في نشوء الصداقة، بل كانت هي ثمرةً لاحقة لها .

١٤. ٥٢. فلا ينبغي لنا أن نصغي إلى أولئك الذين يرفلون في الترف والنعيم، إن هم خاضوا في الحديث عن الصداقة — وهم لم يعرفوها لا من خلال تجربة، ولا عبر عقلٍ راجح. فمن هو ذلك الإنسان، بحق الآلهة والبشر، الذي يرضى ألا يُحبّ أحدًا، ولا يُحَبّ من أحد، ويعيش في فيض من الثروات، محاطًا بكل صنوف الرغد والوفرة؟ تلك، دون شك، هي حياة الطغاة: حياة لا وفاء فيها، لا مودّة، ولا يُمكن أن يُرجى فيها ودٌّ صادق أو ثابت. كل شيء فيها مشوبٌ بالريبة، مثقلٌ بالقلق، ولا مقام فيها للصداقة[١].

[١] يصور شيشرون حياة الطاغية بأنها مليئة بالتضاد: وفرة في الأموال مقابل فقر في المحبة، وقوة السيطرة مقابل ضعف الثقة، وراحة ظاهرية مقابل قلق دائم، وعلاقات كثيرة ولكن لا صداقة فيها.

١٥. ٥٣. فمن ذا الذي يُحب شخصًا يخافه، أو من ذا الذي يُحب شخصًا يظن أنه يُخاف منه؟ مع ذلك، يُتودد إليهم بالتصنع مؤقتًا فقط. ولكن إذا ما سقطوا – كما يحدث في الغالب – حينئذٍ يُدرك كم كانوا بلا أصدقاء. ويُروى أن تاركوينيوس قال هذا عندما كان في المنفى، حيث أدرك حينها من كانوا أصدقاءه المخلصين ومن كانوا غير الأوفياء، في الوقت الذي لم يعد قادرًا فيه على رد الجميل لأي من الفريقين.

١٥. ٥٤. ومع ذلك أتعجب كيف استطاع ذلك الرجل – بتكبّره ووقاحته – أن يملك أي صديق على الإطلاق. فكما أن أخلاق ذلك الشخص الذي ذكرته لم تستطع اكتساب أصدقاء حقيقيين، هكذا أيضًا ثروات الأقوياء الكثر تُبعد عنهم الصداقات المخلصة. لأن الحظ ليس أعمى بذاته فحسب، بل إنه غالبًا ما يُعمي أولئك الذين يحتضنهم[١]؛ فيصبحون عادةً متغطرسين ومتعجرفين، ولا شيء أكثر إزعاجًا من أحمقٍ ناجح. وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح: أن أولئك الذين كانت أخلاقهم معتدلة سابقًا، عندما يصلون إلى السلطة والمناصب والنجاح، يتغيرون، فيزدرون صداقاتهم القديمة ويُفرطون في الصداقات الجديدة.

١٥. ٥٥. وأي شيء أكثر حماقة من أن يمتلك المرء كل هذه القوة والموارد والثروة، فيقتني كل ما يمكن شراؤه بالمال: الخيل والخدم والثياب الفاخرة والتحف الثمينة، لكنه لا يقتني الأصدقاء – تلك الزينة الفريدة والجميلة للحياة، إذا جاز لي قول هذا؟ ذلك أن الإنسان عندما يقتني تلك الأشياء الأخرى، لا يدري لمن يقتنيها، ولا يعرف لماذا يتعب في جمعها (فكل منها سيكون ملكاً لمن يغلب بالقوة)، أما الصداقات فهي الممتلكات الدائمة والثابتة لكل إنسان. وحتى لو بقيت تلك المقتنيات التي هي بمثابة هبات الحظ[٢]، فإن الحياة تبقى قاحلة[٣] وغير سعيدة بدون الأصدقاء[٤]. ولكن لنكتفِ بهذا القدر الآن[٥].

---

[١] فكرة أن "الحظ يُعمي الناجحين" مستوحاة من الفلسفة الرواقية التي تحذر من تأثير الثروة والسلطة على الحكمة.

[٢] التعبير "هبات الحظ" dona Fortunae فيه إشارة إلى الفلسفة الرواقية التي تميز بين ما هو تحت سيطرتنا وما هو هبة عابرة.

[٣] التعبير "حياة قاحلة" vita inculta تشبيه بليغ فهو يشبه الحياة بدون أصدقاء بأرض جدباء لا تصلح للزراعة.

[٤] يعكس النص أزمة القيم في أواخر العهد الجمهوري الروماني وينتقد شيشرون طبقة النبلاء الجدد الذين يجمعون الثروة وينسون القيم الإنسانية، ويشير إلى أن الممتلكات المادية معرضة للنهب (كما حدث في الحروب الأهلية)؛

١٦. ٥٦. يجب تحديد حدود ومعايير للحب في الصداقة. وأرى في هذا الصدد ثلاث نظريات لا أوافق على أي منها: الأولى أن نكن للصديق نفس المشاعر التي نكنها لأنفسنا، والثانية أن تكون مشاعرنا الودية نحو الأصدقاء مساوية ومتوازنة مع مشاعرهم نحونا، والثالثة أن يُقدر كل شخص من قبل أصدقائه بنفس القدر الذي يقدر به نفسه.

١٦. ٥٧. لا أوافق مطلقًا على أي من هذه الآراء الثلاثة. فالرأي الأول غير صحيح، وهو أن تكون مشاعرنا نحو الصديق مماثلة لمشاعرنا نحو أنفسنا. فكم من الأشياء التي لا نفعلها أبدًا لصالحنا، ونفعلها من أجل أصدقائنا! كأن نتوسل إلى شخص غير جدير، وأن ننزل إلى التضرع، وأن نهاجم شخصًا آخر بقسوة ونقمة شديدة – هذه الأمور التي تكون غير لائقة في شؤوننا الشخصية، تصبح جديرة بالإعجاب عندما تتعلق بأصدقائنا. وهناك فرص عديدة يضيعها الرجال الطيبون ويسمحون بالحرمان منها، لكي يستفيد منها أصدقاؤهم بدلاً منهم.

١٦. ٥٨. والرأي الثاني يعرّف الصداقة بتوازن الواجبات والمشاعر. وهذا في الحقيقة تضييق مفرط وتقزيم للصداقة بحيث تحسب كالحسابات الرياضية، ليصبح هناك توازن بين ما يأخذه وما يعطيه كل طرف. أما الصداقة الحقيقية فهي في نظري أكثر ثراءً ووفرة، ولا تُراقب بدقة خشية أن تعطي أكثر مما تأخذ؛ إذ لا ينبغي أن نخشى من شيء قد يضيع، أو شيء قد يسقط على الأرض، أو أن يُلقى في الصداقة أكثر من المعقول.

١٦. ٥٩. أما المعيار الثالث فهو الأسوأ، وهو أن يُقدر المرء من قبل أصدقائه بنفس القدر الذي يقدر به نفسه. فإنه في كثير من الأحيان يكون لدى البعض نفسٌ مُهينة أو آمالٌ في تحسين ظروفهم المُحطمة. لذلك ليس من واجب الصديق أن يعامل صديقه وفق تقدير هذا الأخير لنفسه، بل عليه أن يسعى ويبذل الجهد ليرفع من نفسية صديقه المنهزمة ويقوده نحو أملٍ وفكرٍ أفضل. ومن ثم يجب وضع معيار آخر للصداقة الحقيقية، بعد أن أذكر أولاً ما كان سكيبيو يعيب عليه

كما يشير إلى أن الصداقة ليست سلعة قابلة للشراء، والسعادة الحقيقية لا تأتي من التملك المادي، وأن العلاقات الإنسانية هي الضمانة الوحيدة ضد تقلبات الزمن.

[٥] الخاتمة المفاجئة "ولكن لنكتفِ بهذا القدر الآن" هي أسلوب شيشروني مميز لإنهاء النقاش بشكل مؤقت، وكأنه يترك القارئ يتأمل هذه الأفكار قبل متابعة النقاش. وهذه التقنية البلاغية تسمى "السكوت الإيحائي" aposiopesis .

أكثر. فقد كان ينكر أن يُعثر على قول أكثر عداءً للصداقة من قول من قال إنه ينبغي للمرء أن يحب صديقه وكأنه في يوم ما سيكرهه؛ ولم يكن يصدق أن هذه المقولة – كما يُعتقد – صدرت عن بياس الذي عُدّ حكيماً بين الحكماء السبعة[1]، بل كان يرى أنها لرجل دنيء أو طموح أو يسعى لجعل كل شيء وسيلة لتعزيز سلطته. فكيف يمكن لأحد أن يكون صديقًا لشخص يعتقد أنه قد يصير عدوًا له يومًا؟ بل سيكون مضطرًا لأن يتمنى ويطلب أن يخطئ صديقه كثيرًا ليمنحه مزيدًا من الذرائع للانتقاد؛ ومن ناحية أخرى سيتوجب عليه أن يتألم ويحزن ويحسد عند نجاحات وأفضال أصدقائه.

١٦. ٦٠. ولهذا فإن هذه النصيحة – أياً كان مصدرها – تؤدي إلى إفساد الصداقة؛ وكان ينبغي بدلاً منها أن نوصي ببذل العناية الواجبة عند اختيار الصداقات، حتى لا نبدأ بحب شخص قد نكرهه يومًا ما. بل إن سكيبيو كان يرى أنه حتى لو كنا غير موفقين في اختيارنا للأصدقاء، فيجب تحمل ذلك الصديق بدلاً من التخطيط لوقت العداوة.

١٧. ٦١. أرى إذن أنه يجب الالتزام بهذه الحدود: عندما تكون أخلاق الأصدقاء مستقيمة، يجب أن تكون هناك بينهم شراكة كاملة في كل الأمور والمشاريع والرغبات دون أي استثناء، بحيث حتى لو حدث بالصدفة أن تكون بعض رغبات الأصدقاء غير عادلة وتحتاج إلى الدعم – عندما يكون الأمر متعلقًا بسلامتهم أو سمعتهم – فيجب الخروج عن الطريق القويم، بشرط ألا يترتب على ذلك إثم فادح؛ فهناك حد يمكن فيه التسامح من أجل الصداقة[2]. ولا يجب إهمال السمعة ولا ينبغي اعتبار ود المواطنين سلاحًا عاديًا لتحقيق الأهداف؛ فمن القبح جمع هذا الود بالتملق والمجاملة؛ أما الفضيلة التي يتبعها الحب فهي لا تُرفض بأي حال.

١٧. ٦٢. ولكن (فإني كثيرًا ما أعود إلى سكيبيو، الذي كان كل حديثه عن الصداقة) كان يشكو من أن الناس يكونون أكثر حرصًا في كل الأمور؛ فيستطيعون أن يقولوا كم عدد الماعز والأغنام التي يملكونها، لكنهم لا يستطيعون أن يقولوا كم عدد الأصدقاء الذين يملكونهم، وأنهم يبذلون العناية في اقتناء تلك الحيوانات، لكنهم مهملون في اختيار الأصدقاء، ولا يملكون علامات

[1] الفيلسوف اليوناني بياس من بريني من حكماء بلاد اليونان السبعة، ازدهر في القرن السادس قبل الميلاد.

[2] تعكس هذه الفقرة أزمة القيم في أواخر الجمهورية الرومانية حيث الصراع بين الولاء الشخصي والواجب العام.

ومعايير يميزون بها من هو أهل للصداقة[1]. فيجب إذن اختيار الأصدقاء الثابتين والراسخين والموثوقين؛ وهؤلاء نادرون جدًا. والحكم في هذا الأمر صعب حقًا ما لم يكن المرء قد جربه؛ ولكن التجربة لا تكون إلا بعد الصداقة ذاتها[2]. وهكذا تسبق الصداقة الحكم وتلغي إمكانية الاختبار.

١٧. ٦٣. فمن الحكمة إذن أن نضبط كلاً من اندفاع الود، كما نضبط سرعة الخيل[3]، فنستخدمه كما نستخدم خيلاً قد جربناها، وكذلك الصداقة بعد أن نختبر جزئيًا أخلاق الأصدقاء. فالبعض يُظهر خفته في أمور مالية صغيرة، بينما آخرون – الذين لم تؤثر فيهم الأمور الصغيرة – تُعرف حقيقتهم في الأمور الكبيرة[4]. ولكن إن وجدنا من يعتبر تفضيل المال على الصداقة أمرًا دنيئًا، فأين نجد من لا يفضل المناصب والوظائف والسلطات والثروات على الصداقة[5]؟ حتى عندما توضع هذه الأمور من جهة، وحق الصداقة من جهة أخرى، ألا يفضلون تلك الأشياء بكثير؟ فطبيعة البشر ضعيفة في احتقار القوة، وحتى إذا ما حققوها بإهمالهم للصداقة، يعتقدون أن ذلك سيُطمس، لأن الصداقة لا تُهمل دون سبب كبير.

١٧. ٦٤. ولهذا نجد أن الصداقات الحقيقية نادرة جدًا بين أولئك المنخرطين في المناصب والشؤون العامة؛ فأين تجد من يفضل شرف صديقه على شرفه الشخصي؟ وماذا؟ لنترك هذا جانبًا، كم تبدو مشاركة المصائب ثقيلة وصعبة على معظم الناس! حيث لا يسهل العثور على من ينزل إليها. ومع أن إنّيوس كان محقًا حين قال: " يُعرف الصديق الحقيقي في وقت المحن،"[6]

إلا أن هذين الاختبارين يفضحان خفة وضعف معظم الناس: إما أن يتعالوا في أوقات الرخاء أو يهجروا في الأوقات الصعبة. فمن أظهر نفسه في كلا الحالتين جادًا، ثابتًا، راسخًا في الصداقة، فيجب أن نحكم بأنه من أندر أنواع البشر وأقربهم إلى الألوهية.

---

[1] ينتقد شيشرون الاهتمام بالماديات كحيوانات المزرعة على اختيار الأصدقاء. ويستخدم هذا التشبيه لفضح الاهتمام بالماديات على حساب العلاقات الإنسانية. ولذلك يدعو شيشرون إلى وضع معايير في اختيار الأصدقاء.

[2] يكشف شيشرون عن معضلة، وهي أن معرفة الصديق الحق لا تكون إلا بالتجربة وبمرور الأيام.

[3] يشبه شيشرون ضبط مشاعر الود (impetum benevolentiae) بضبط سرعة الخيل (equis temptatis).

[4] يقترح شيشرون اختبار الأصدقاء على مستويين: اختبارات صغيرة وأخرى كبيرة، فهناك من ينكشف أمره في الاختبارات صغيرة، وهناك من لا تظهر حقيقته إلا بعد الرسوب في الاختبارات الكبيرة.

[5] يرتب شيشرون إغراءات الحياة تصاعديًا: المال ثم المناصب والوظائف والسلطات والقوى والثروات.

[6] Ennius (fr. 210 Vahlen)

١٨. ٦٥. أما أساس الثبات والاستقرار الذي نبحث عنه في الصداقة فهو الوفاء؛ فليس هناك شيء مستقر إذا كان غير موثوق. ويجب أيضًا اختيار الشخص البسيط والمتشارك والمتناغم، أي الذي يتحرك بنفس الدوافع، وكل هذه الصفات ترتبط بالوفاء. فلا يمكن لشخص متعدد الوجوه وملتوٍ أن يكون وفيًا، ولا يمكن لمن لا تحركه نفس الدوافع ولا يتناغم طبعًا أن يكون موثوقًا أو ثابتًا. ويجب أن نضيف إلى ذلك ألا يسعد بإلحاق التهم أو يصدقها إذا ألقي بها، وكل هذا يرتبط بذلك الثبات الذي تناولته منذ قليل. وهكذا يتحقق ذلك القول الذي ذكرته في البداية، أن الصداقة لا يمكن أن تكون إلا بين الأخيار. فمن صفات الرجل الصالح – الذي يمكننا أن نسميه أيضًا الحكيم – أن يحافظ على هذين المبدأين في الصداقة: أولاً ألا يكون هناك تزييف أو تظاهر؛ فالكره الصريح أشرف من إخفاء الرأي خلف قناع؛ وثانيًا ألا يرفض التهم المنسوبة إليه فحسب، بل ألا يكون هو نفسه مرتابًا، معتقدًا دائمًا أن صديقه قد أساء إليه.

١٨. ٦٦. يجب أن يُضاف إلى ذلك شيء من لطف الحديث والسلوك، وهو ليس بتوافه بل بمثابة بهار الصداقة. أما الكآبة والصرامة المطلقة في كل شيء فتمتلك فعلاً وقارًا، لكن الصداقة يجب أن تكون أكثر انطلاقًا وأكثر حرية وأكثر حلاوة وأكثر ميلاً لكل أنواع المؤانسة والسهولة.

١٩. ٦٧. وتبرز هنا مسألة شبه عسيرة، وهي هل يُفضل الأصدقاء الجدد الجديرون بالصداقة على الأصدقاء القدامى، كما نفضل عادةً الخيول الفتية على العجائز. إنه تردد لا يليق بالإنسان! فلا ينبغي للصداقات أن تشبه غيرها من الأمور في التعرض للإشباع؛ بل يجب أن تكون أقدمها كأقدم الخمور التي تتحمل التقادم، أحلاها طعمًا[1]. وصحيح ذلك القول المأثور: "يجب أن نأكل معًا العديد من مكاييل الملح حتى يكتمل واجب الصداقة[2]".

١٩. ٦٨. أما الصداقات الجديدة إذا ما بشرت بأمل، كما تظهر الثمار في النباتات غير الخادعة، فهي بالتأكيد ليست مرفوضة، لكن يجب الحفاظ على القديم في مكانته؛ فإن لقوة القديم والعادة تأثيرًا عظيمًا. بل حتى في الحصان الذي ذكرته للتو، إذا لم يعقه شيء، لا يوجد أحد لا يفضل

---

[1] قارن شيشرون الصداقات القديمة والجديدة بتشبيهها تارة بالخيول الكبيرة في السن والخيول الفتية، حيث تكون الأفضلية للخيول الشابة، وتارة بالخمر حديثة الصنع وتلك القديمة المعتقة، وكذلك تكون الأفضلية لتلك القديمة.

[2] هذا المثل يعكس الحكمة العملية الرومانية التي تربط بين: المشاركة المادية (تناول الملح معًا)، والعمق العاطفي (اكتمال الصداقة)، وهو ما يظهر الصداقة كعلاقة إنسانية فريدة، تتعمق بمرور الزمن بدلاً من أن تبلى.

استخدام الذي اعتاده على الجديد غير المروض. ولا تنطبق هذه القاعدة على الكائنات الحية فحسب، بل حتى على الجمادات، حيث نستمتع بالأماكن نفسها، حتى الجبلية والحرجية منها، التي أقمنا فيها زمناً طويلاً[١].

١٩. ٦٩. ولكن أعظم ما في الصداقة هو المساواة مع الأدنى. فكثيرًا ما تكون هناك شخصيات بارزة، كما كان سكيبيو في قطيعنا (مجموعتنا)[٢] – إذا جاز التعبير. فهو لم يفضل نفسه قط على فيلوس[٣]، ولا على روبيليوس[٤]، ولا على موميوس[٥]، ولا على أصدقائه من الطبقة الدنيا، أما كوينتوس ماكسيموس[٦] الشقيق – رغم كونه رجلاً فاضلاً بكل المقاييس ولكنه لم يكن مساويًا له – فقد أحاطه بالتوقير لأنه كان أكبر منه سنًا، وكان يرغب أن يصبح جميع أصدقائه أكثر عظمة من خلاله[٧].

١٩. ٧٠. وهذا ما يجب على الجميع فعله واتباعه: إذا ما بلغوا أي تفوق في الفضيلة أو الموهبة أو الثروة، أن يشركوا فيها أقاربهم ويشاركوهم إياها، حتى إذا وُلدوا لوالدين متواضعين، أو كان لهم أقارب أضعف نفسًا أو حظًا، أن يزيدوا من ثرواتهم ويكونوا مصدر فخر وكرامة لهم. كما في

---

[١] يقبل شيشرون الصداقات الجديدة بشرط أن تحمل أملاً حقيقيًا وأن تكون غير خادعة وأن تثمر، لكنه يؤكد على تفضيل القديم بسبب قوة الاعتياد ومالها من تأثير عظيم، ويشبه الصداقات الجديدة بالنباتات المثمرة وتعكس هذه الاستعارة: ضرورة التحلي بالصبر لرؤية الثمار. ويوسع شيشرون دائرة المقارنة لتشمل الحيوانات والجمادات. ويشير إلى صعوبة التأقلم مع الجديد والراحة النفسية تجاه القديم. ويقدم شيشرون هنا رؤية متوازنة للعلاقات الإنسانية عبر الزمن: فهو لا يرفض الجديد إذا كان واعدًا، لكنه يفضل القديم بسبب عمق التجربة المشتركة.

[٢] استخدم شيشرون كلمة grege (القطيع/المجموعة): وهي استعارة حيوانية توضح التجانس.

[٣] لوكيوس فُوريوس فيلوس، صديق سكيبيو أيميليانوس، شاركه اهتماماته الثقافية، وكان أحد رعاة الشاعر المسرحي ترنتيوس. قدّمه شيشرون بوصفه أحد المتحاورين في محاورة عن الجمهورية، وقنصل عام ١٣٦ ق.م..

[٤] بوبليوس روبيليوس قنصل عام ١٣٢ ق.م..

[٥] سبوريوس موميوس، كاتب مسرحيات ساتيرية وأحد أعضاء صالون سكيبيو الأدبي.

[٦] كوينتوس فابيوس ماكسيموس أيميليانوس قنصل عام ١٤٥ ق.م..

[٧] يطرح شيشرون مبدأً جوهريًا في الصداقة: المساواة مع الأدنى، ويقدم سكيبيو الأفريقي كمثال حي فهو لم يفضل نفسه على أصدقاء أقل مكانة مثل فيلوس وآخرين، كما عامل الأكبر سنًا بالتوقير.

الأساطير، حينما يظل يقوم بعض الأشخاص بالعمل كخدم لبعض الوقت بسبب جهلهم بأصلهم ونسبهم، ثم عندما يُعرفون ويُكتشف أنهم أبناء آلهة أو ملوك، يحتفظون مع ذلك بمحبتهم للرعاة الذين اعتبروهم آباءهم لسنوات عديدة. وهذا بالتأكيد ما يجب فعله بشكل أكبر مع الآباء الحقيقيين والمعروفين. فإن ثمار الموهبة والفضيلة وكل تفوق تُجنى أعظم ما تكون عندما تُمنح لأقرب الناس.

٢٠. ٧١. فكما أن أولئك المتفوقين في روابط الصداقة والقرابة يجب أن يساووا أنفسهم بالأدنى، كذلك على الأدنى ألا يتألموا إذا تفوق عليهم أصدقاؤهم في الموهبة أو الثروة أو المكانة. ومعظم هؤلاء إما يشتكون دائمًا من شيء أو حتى يعيرون بمعروفهم، خاصة إذا اعتقدوا أن لديهم ما يمكنهم القول إنه فعلوه بكرم وصداقة وبعض الجهد من جانبهم. إنه لصنف بغيض حقًا من الناس أولئك الذين يعيرون بالمعروف؛ الذي يجب أن يتذكره من وُجّه إليه، لا أن يذكره من قدمه.

٢٠. ٧٢. ولذلك كما يجب على الأعلى في المكانة أن يتواضعوا في الصداقة، يجب بطريقة ما رفع معنويات من هم أدنى منهم. فهناك أناس يجعلون الصداقات مزعجة عندما يعتقدون أنهم مُحتقرون؛ وهذا لا يحدث عادة إلا لأولئك الذين يعتبرون أنفسهم جديرين بالاحتقار؛ وهؤلاء يجب تخفيف هذا الاعتقاد عنهم ليس بالكلام فقط بل بالفعل أيضًا[١].

٢٠. ٧٣. ولكن يجب منح كل شخص بقدرين: أولاً بقدر ما تستطيع أنت تقديمه، وثانيًا بقدر ما يستطيع هو – ذلك الذي تحبه وتساعده – أن يتحمله. فأنت لا تستطيع، حتى لو كنت عظيمًا، أن ترفع جميع أصدقائك إلى أسمى المناصب، كما استطاع سكيبيو أن يجعل بوبليوس روبيليوس قنصلاً، بينما لم يستطع فعل ذلك لأخيه لوكيوس. وحتى لو استطعت منح الآخر أي شيء، فلا يزال عليك أن تنظر فيما يستطيع هو تحمله.

٢٠. ٧٤. يجب الحكم على الصداقات بشكل عام عندما تكون العقول والأعمار قد نضجت واكتملت، ولا يجب اعتبار أولئك الذين أحبوا في سن مبكرة رفاق الصيد أو لعب الكرة أصدقاءً لا غنى عنهم لمجرد أنهم شاركوهم نفس الهوايات آنذاك. فبهذه الطريقة ستطالب المربيات والمربون بحقّ العِشرة الطويلة بأعظم قدر من المودة؛ ولا ينبغي إهمالهم بالطبع، لكن يجب تقديرهم بطريقة مختلفة. وبغير هذه الطريقة لا يمكن للصداقات أن تظل ثابتة ودائمة. فالأخلاق المختلفة تتبع

[١] تعكس هذه الفقرة أهمية الرعاية في المجتمع الروماني، والعلاقة بين الراعي والتابع.

اهتمامات مختلفة، واختلافها هذا يفرق بين الأصدقاء؛ ولا يوجد سبب آخر يمنع الأخيار من أن يكونوا أصدقاء للأشرار، أو الأشرار للأخيار، سوى أن الفجوة بينهم في الأخلاق والاهتمامات هي أعظم ما يمكن.

٢٠. ٧٥. ومن المناسب أيضًا أن نوصي في الصداقات بألا تعيق عاطفة الود غير المعتدلة – كما يحدث كثيرًا – المصالح الكبرى للأصدقاء. فكما لو عدنا إلى الأساطير، ما كان نيوبتوليموس[١] ليقدر على احتلال طروادة لو أنه استجاب لبكاء ليكوميديس[٢] – الذي رباه – وهو يعترض طريقه بدموع غزيرة. وكثيرًا ما تحدث أمور عظيمة تستلزم الابتعاد عن الأصدقاء؛ ومن يحاول منع ذلك لأنه لا يحتمل فراقهم، فهو ضعيف ولين الطبع، وبسبب ذلك نفسه غير عادل في الصداقة.

٢٠. ٧٦. وفي كل أمر يجب التأمل فيما تطلبه من الصديق، وما تسمح له بأن ينال منك.

٢١. ٧٦. توجد أيضًا ثمة محنة في إنهاء الصداقات التي يصبح إنهاءها ضروريًا أحيانًا؛ إذ إن حديثنا ينتقل الآن من صداقات الحكماء إلى صداقات العامة. كثيرًا ما تنفجر عيوب الأصدقاء سواء تجاه الأصدقاء أنفسهم أو تجاه الآخرين، لكن العار يعود بالنتيجة على الأصدقاء. لذلك يجب التخلص من مثل هذه الصداقات بالتخفيف من التواصل تدريجيًا، وكما سمعت كاتو يقول، يجب 'حل خيوطها' بدلاً من 'تمزيقها'، إلا إذا اشتعلت إساءة بالغة لا تُحتمل، بحيث لا يكون من الصواب ولا الشرف ولا حتى الممكن إلا إنهاء العلاقة والقطيعة فورًا.

٢١. ٧٧. أما إذا حدث تغير في الأخلاق أو الاهتمامات – كما يحدث عادة – أو وقع خلاف في الشأن السياسي (فأنا أتحدث الآن، كما قلت سابقًا، ليس عن صداقات الحكماء بل عن الصداقات العادية)، فيجب الحذر من أن يبدو الأمر ليس مجرد إنهاء للصداقة، بل أيضًا بداية لعداوة. فلا شيء أشنع من أن تخوض حربًا مع من عشت معه بألفة. كما تعلمون، كان سكيبيو قد قطع

---

[١] نيوبتوليموس أو بيرهوس هو ابن أخيلّيس.

[٢] بطلبٍ من ثيتيس، أخفى ليكوميديس ملك سكيروس أخيلّيس متنكرًا في هيئة فتاة بين بناته. وأثناء إقامته في بلاط ليكوميديس، أقام أخيلّيس علاقة مع ديداميا، أسفرت عن ولادة نيوبتوليموس (بيرهوس). وعندما جاء أوديسيوس واكتشف تنكّر أخيلّيس أخذه إلى طروادة، وبقي نيوبتوليموس مع جده إلى أن استُدعي في نهاية الحرب.

صداقته مع كوينتوس بومبي[1] باسمي (بسببي)؛ أما بسبب الخلاف الذي كان في شؤون الدولة، فقد تباعد عن زميلنا ميتيلوس؛ وفي كلتا الحالتين تصرف بوقار، بسلطة روحية ودون مرارة في النفس.

٢١. ٧٨. لذلك يجب بذل الجهد أولاً لمنع حدوث أي خلافات بين الأصدقاء؛ ولكن إذا حدث شيء من هذا القبيل، فليبدو انتهاء الصداقة أشبه بانطفاء طبيعي لا كإخماد قسري. ويجب الحذر بشكل خاص من تحول الصداقات إلى عداوات خطيرة، التي تولد منها المشاجرات والشتائم والإهانات. ومع ذلك، إذا كانت هذه الأمور محتملة، فيجب تحملها، ويجب منح هذا التقدير للصداقة القديمة، بحيث يكون المخطئ هو من يسيء لا من يتلقى الإساءة. وفي النهاية، فإن الوقاية الوحيدة والاحتراز الوحيد من كل هذه العيوب والمشاكل هو ألا يبدأ المرء في الحب بسرعة زائدة، وألا يحب غير الجديرين.

٢١. ٧٩. وأما الجديرون بالصداقة فهم أولئك الذين يحملون في أنفسهم سببًا للحب. إنهم فئة نادرة. وفي الحقيقة كل الأشياء الرائعة نادرة، وليس هناك شيء أصعب من العثور على ما هو كامل من كل الجهات في نوعه. لكن معظم الناس لا يعرفون في الشؤون الإنسانية أي خير إلا ما كان نافعًا، ويحبون أصدقاءهم كالبهائم، ويفضلون تحديدًا أولئك الذين يرجون أن يجنوا منهم أكبر منفعة.

٢١. ٨٠. وهكذا يفتقر هؤلاء إلى تلك الصداقة الجميلة والطبيعية للغاية، المطلوبة لذاتها ومن أجل نفسها، ولا يكونون هم أنفسهم مثالاً عليها، هذه القوة الحقيقية للصداقة وماهيتها وعظمتها. فإن كل شخص يحب نفسه، لا ليطلب من نفسه أجرًا على حبه، بل لأنه غالي على نفسه بذاته. وإذا لم يُنقل هذا المبدأ نفسه إلى الصداقة، فلن يُعثر أبدًا على صديق حقيقي؛ فالصديق هو بمثابة الذات الأخرى.

٢١. ٨١. وإذا كان هذا واضحًا في الوحوش والطيور والكائنات البحرية والبرية والأليفة والمتوحشة – أولاً في حبها لذاتها (فهذا يولد مع كل كائن حي)، ثم في بحثها وشوقها للارتباط بكائنات من جنسها، وهي تفعل ذلك بشغف وبشكل يشبه الحب الإنساني، فكم يكون هذا أكثر طبيعية في الإنسان! الذي يحب نفسه ويبحث عن آخر، ليمزج روحه مع روحه حتى يكاد يصنع من الاثنين واحدًا.

---

[1] كوينتوس بومبي من معارضي تيبريوس جراكوس، وكان نقيبًا للعامة عام ١٣٢ ق.م.

٢٢. ٨٢. لكن معظم الناس – بتحريف، لا أقول بوقاحة – يريدون أن يكون لهم صديق مثل الذي لا يستطيعون هم أن يكونوا مثله، ويطلبون من أصدقائهم ما لا يقدمونه هم لهم. بينما العدل أن يكون المرء أولاً رجلاً صالحًا بنفسه، ثم يبحث عن آخر مثله. في مثل هذه العلاقات يمكن تأكيد استقرار الصداقة الذي نناقشه منذ فترة، حيث إن الناس المتحدين بالمودة سيسيطرون أولاً على تلك الرغبات التي يخضع لها الآخرون، ثم سيبتهجون بالإنصاف والعدل، وسيتحمل كل منهما عن الآخر كل شيء، ولن يطلب أحدهما من الآخر إلا ما هو شريف وصحيح، ولن يحترم بعضهم بعضًا ويحبون فحسب، بل سيوقرون أيضًا. فمن يزيل الحياء من الصداقة يزيل أعظم زينتها.

٢٢. ٨٣. ولذلك فإنه بين هؤلاء يوجد خطأ مهلك إذ يعتقدون أنه في الصداقة متسع لكل الشهوات والآثام؛ لكن الصداقة مُنحت من الطبيعة كمعين للفضائل لا كرفيق للرذائل، حتى أن الفضيلة، بما أنها لا تستطيع بمفردها أن تبلغ الذروة، تبلغها متحدة ومرافقة لأخرى. وهذه الشراكة التي إما أن تكون موجودة أو كانت موجودة أو ستكون بين بعض الناس، يجب اعتبارها الرفيق الأمثل والأسعد للوصول إلى أعظم خير في الطبيعة.

٢٢. ٨٤. هذه هي، كما أقول، الشراكة التي تضم كل ما يعتبره الناس جديرًا بالسعي إليه: الشرف، والمجد، وراحة البال، والبهجة، بحيث تكون الحياة سعيدة بوجودها ولا يمكن أن تكون سعيدة بدونها. وبما أن هذا هو الخير الأعظم والأسمى، إذا أردنا تحقيقه، يجب أن نكرس أنفسنا للفضيلة، التي بدونها لا يمكننا اكتساب لا الصداقة ولا أي شيء آخر مرغوب فيه. أما أولئك الذين يهملونها ويظنون أن لهم أصدقاء، فإنهم يدركون أخيرًا أنهم أخطأوا عندما يجبرهم ظرف صعب على اختبار هؤلاء الأصدقاء.

٢٢. ٨٥. ولذلك (فلا بد من تكرار القول)، يجب أن تحب بعد أن تحكم، لا أن تحكم بعد أن تحب. ولكن بينما نُعاقب بالإهمال في أمور كثيرة، فإننا نُعاقب أشد العقاب في اختيار الأصدقاء وحبهم ورعايتهم؛ فإننا نستخدم تقديرات معكوسة ونفعل الأشياء بالمقلوب، كما ينهانا المثل القديم. إذ نجد أنفسنا متشابكين من كل جانب، إما بعلاقة طويلة الأمد أو حتى بتبادل الخدمات، ثم فجأة في منتصف الطريق نقطع صداقاتنا بسبب بعض الإساءة الطارئة.

٢٣. ٨٦. مما يجعل الإهمال في هذه المسألة بالغة الأهمية جديرًا بمزيد من اللوم. فإن الصداقة هي الشيء الوحيد في الشؤون الإنسانية الذي يتفق الجميع بلسان واحد على فائدته. على الرغم

من أن الفضيلة ذاتها يحتقرها الكثيرون ويصفونها بأنها نوع من التظاهر والتفاخر؛ وكثيرون يحتقرون الثروات، ويجدون لذتهم في العيش البسيط والقناعة بالقليل؛ أما المناصب التي يشتعل شوق البعض لنيلها، فكم هم كثيرون من يحتقرونها لدرجة اعتبارها أنها أكثر شيء خواءً ولا شيء أكثر تفاهة منها! وكذلك كل الأمور الأخرى التي يراها البعض رائعة، هناك كثيرون جدًا يعتبرونها بلا قيمة؛ لكن فيما يخص الصداقة، فإن الجميع بدون استثناء متفقون، سواء أولئك الذين انخرطوا في الشؤون العامة، أو الذين يجدون متعتهم في المعرفة والتعلم، أو الذين يديرون أعمالهم بهدوء، وأخيرًا أولئك الذين كرسوا أنفسهم كليًا للملذات، أن الحياة بدون صداقة لا تساوي شيئًا، إذا ما أرادوا أن يعيشوا بشكل حر إلى حد ما.

٢٣. ٨٧. فالصداقة تتسلل بطريقة ما عبر حياة الجميع، ولا تسمح لأي أسلوب في قضاء العمر أن يخلو منها. بل حتى لو كان أحد ما قاسيًا ووحشيًا في طبعه لدرجة تجنبه الناس وكرهه لهم، كما سمعنا عن شخص اسمه تيمون في أثينا[١]، فإنه مع ذلك لا يستطيع إلا أن يبحث عن شخص يفرغ عنده سم مرارته. وهذا سيكون أكثر وضوحًا لو أمكن أن يحدث أن يأخذنا إله ما من بين هذا الزحام البشري ويضعنا في عزلة ما، حيث يوفر لنا وفرة من كل ما تحتاجه الطبيعة، لكنه يحرمنا تمامًا من رؤية أي إنسان. من يكون من الصلابة بحيث يستطيع تحمل تلك الحياة، وألا تسلبه العزلة متعة كل الملذات؟

٢٣. ٨٨. إذن فصحيح ذلك القول الذي سمعت شيوخنا يروونه عن شيخ آخر، وهو ما كان يقوله أرخيتاس من تارنتوم[٢]، كما أعتقد: 'لو صعد أحد إلى السماء وأبصر طبيعة الكون وجمال النجوم، لكان إعجابه بذلك بلا متعة؛ ولكان ألذ بكثير لو كان لديه من يشاركه هذا المشهد.' هكذا فإن

---

[١] يقول بلوتارخوس كان تيمون أثينيًا، وعاش على الأرجح في زمن الحرب البيلوبونيسية، وقد صوَّره بوصفه متبرمًا كارهًا للبشر؛ وبحسب لوكيانوس، كان تيمون الثري ينفق أمواله بسخاء على أصدقاء متملقين. ولكن عندما نفدت ثروته، هجروه وتُرك ليعمل في الحقول. وذات يوم، عثر على جرة من الذهب، فما لبث أولئك الأصدقاء أن عادوا إليه، غير أنه هذه المرة طردهم ورشقهم بالحجارة. وقد ذكره أريستوفانيس بوصفه كارهًا للبشرية، وكان يكن إعجابًا كبيرًا بألكيبياديس، لأنه كان يعتقد – عن حق – أن ألكيبياديس سيلحق الضرر بأثينا يومًا ما.

[٢] كان عالِمًا وفيلسوفًا مرتبطًا بالمدرسة الفيثاغورية، واشتهر بكونه مؤسس الميكانيكا الرياضية، كما كان صديقًا لأفلاطون. وكفيثاغوري، كان أرخيتاس يرى أن الحساب يُقدِّم الأساس الأمتن للإثباتات المنطقية.

الطبيعة لا تحب العزلة، وهي دائمًا تتكئ على شيء كسند؛ وهذا السند يكون في ألذ صوره عندما يكون الصديق الحميم.

٢٤. ٨٨. ولكن رغم أن الطبيعة نفسها تُفصح بوسائل شتى عمّا تريده، وما تسعى إليه، وما تتوق إليه بشدة، فإننا، لسبب ما، نصمّ آذاننا عن صوتها ولا نصغي إلى نصائحها. ذلك أن خبرات الصداقة متنوّعة ومعقدة، وتُفضي إلى أسباب كثيرة للريبة والضيق، وعلى الحكيم أحيانًا تجاهلها، وأحيانًا الاستهانة بها، وأحيانًا تحملها؛ غير أن هناك نوعًا واحدًا من أسباب الضيق لا بدّ من مواجهته، لكي يُحافظ على فائدة الصداقة وصدقها؛ إذ يجب على الأصدقاء في كثير من الأحيان أن ينصح بعضهم بعضًا، بل وأن يوبّخوا بعضهم بعضًا، ويجب أن تُتلقى النصيحة والتوبيخ بلطف، ما داما يصدران عن نية طيبة وروح مخلصة.

٢٤. ٨٩. ولكن هناك شيء صحيح بطريقة ما في قول صاحبي في مسرحية "أندريا":

" المجاملة تصنع الأصدقاء، والحقيقة تجلب الكراهية."

إن الحقيقة مزعجة إذا جلبت الكراهية، التي هي سم الصداقة، لكن المجاملة تعد أكثر إزعاجًا، لأنها بتساهلها مع الأخطاء تترك الصديق ينزلق إلى الهاوية. لكن الذنب الأكبر يقع على من يرفض الحق ويُدفع إلى الخطأ بالمجاملة. لذلك يجب في كل هذا الأمر التحلي بالحكمة والحرص، أولاً أن يخلو النصح من المرارة، ثم أن يخلو التوبيخ من الإهانة؛ أما في المجاملة – وبما أننا نستخدم بسرور كلمات ترنتيوس – فليكن هناك لطف، ولكن فلنتبعد عن النفاق، مساعد الرذائل، الذي لا يليق بصديق ولا حتى بإنسان حر؛ فنحن نعيش بأسلوب مع الطاغية، وبأسلوب مختلف تمامًا مع الصديق.

٢٤. ٩٠. وإننا لنفقد الأمل في نجاة ذاك الذي أُغلقت أذناه عن سماع الحقيقة حتى لا يقبل سماعها من صديق. فثمة حكمة بارعة في المقولة المشهورة المنسوبة إلى كاتو، كما هو الحال في كثير من أقواله: "من الأفضل أن يكون لبعض الناس أعداء صارمون من أن يكون لهم أصدقاء يبدون لطفاء؛ فأولئك يقولون الحقيقة غالبًا، وهؤلاء لا يقولونها أبدًا." ثم إنه لمن الغريب حقًّا أن ينزعج الناس حين يُنصحون لا من الخطيئة التي يجب أن ينزعجوا منها، بل من النصح ذاته؛ فهم لا يتألمون لخطئهم، بل يتضايقون من التوبيخ؛ بينما كان يجب أن يكون العكس، أن يتألموا للخطأ ويفرحوا بالتوجيه.

٢٥. ٩١. إذن، كما أن النصح وتلقّي النصيحة هما من خصائص الصداقة الحقيقية، ويجب أن يُقدّم النصيحة بحرية لا بخشونة، ويُقبل بصبر لا بمقاومة، كذلك يجب اعتبار أنه لا يوجد آفة في الصداقات أعظم من التملق والمداراة والموافقة الزائفة؛ فبالرغم من أن هذه الرذيلة تُعرف بأسماء عديدة، فإنها تخص الأشخاص السطحيين المخادعين الذين يقولون كل شيء لإرضاء الآخرين، ولا شيء للحقيقة.

٢٥. ٩٢. وبينما النفاق في كل الأمور رذيلة (لأنه يزيل القدرة على الحكم الصحيح ويحرفه)، فهو يتناقض مع الصداقة إلى أقصى حد؛ لأنه يدمر الحقيقة التي بدونها لا يمكن لكلمة صداقة أن تحتفظ بقيمتها. فإذا كانت قوة الصداقة تكمن في أن تصبح عدة أرواح كروح واحدة، فكيف يمكن تحقيق ذلك إذا لم يكن حتى في الفرد الواحد نفس ثابتة ودائمة، بل متغيرة، ومتقلبة، ومتعددة الوجوه؟

٢٥. ٩٣. فما الذي يمكن أن يكون أكثر تقلبًا واضطرابًا من عقل ذلك الشخص الذي لا يتكيف فقط مع أفكار الآخرين ورغباتهم بل حتى مع ملامح وجوههم وإيماءاتهم؟

"إذا قال أحد "كلا"، أقول "كلا"، ؛ وإذا قال أحد "نعم"، أقول"نعم" "؛

وباختصار، ألزمت نفسي أن أوافقه في كل شيء. هذه الكلمات قالها ترنتيوس نفسه[١]، لكنه وضعها على لسان شخصية جناثو[٢]، وهو المهرّج المتملق. وامتلاك مثل هذا الشخص كصديق – أيًّا كانت الظروف – ينم عن تفاهة مطلقة.

٢٥. ٩٤. غير أن الكثيرين، بينما هم شبيهون بجناثو (أي منافقون/طفيليون) في المكانة والحظ والسمعة، فإنهم متفوقون عليه. لدى هؤلاء، تكون المبالغة في الإطراء مزعجة، خاصة عندما تُضاف السلطة إلى الغرور.

٢٥. ٩٥. ومع ذلك، يمكن تمييز الصديق المُتَلَطِّف (المتملق) من الصديق الحقيقي ومعرفته بالجهد المناسب، كما يمكن تمييز ما هو زائف ومصطنع عمّا هو أصيل وصادق. حتى الجمهور

---

[1] Ter. Andr., I.1.41

[٢] اسم شخصية طفيلية من كوميديا "الخصي" لترنتيوس، تمثل الطفيلي الذي يتملق الأغنياء وترمز إلى النفاق.

في المجالس العامة[١]، الذي يتكون من أكثر الناس جهلاً، تستطيع مع ذلك أن تميّز بين المواطن المُدَاهِن (أي المتملق والسطحيّ)، وبين الثابت، والصارم، والجاد.

٢٥. ٩٦. بأي إطراءات كان جايوس بابيريوس مؤخرًا يستميل آذان الجمع الشعبي، حين حاول تمرير قانونٍ يجيز إعادة انتخاب "نقباء العامة"! لقد عارضت ذلك؛ ولكن لن أتحدث عن نفسي، بل سأتحدث بفرحٍ أكثر عن سكيبيو. أيتها الآلهة، ما ذاك الوقار وتلك الهيبة التي اتّسم بها خطابه في تلك المناسبة! حتى أنك لتقول بسهولة إنه قائد الشعب الروماني، وليس مجرد رفيقٍ لهم. لكنكما كنتما حاضرين، والخطبة بين أيديكما منشورة لمن أراد أن يقرأ. وهكذا رُفض "القانون الشعبي" بأصوات الشعب نفسه.

واسمحا لي أن أُشير إلى نفسي هذه المرة، أتذكران، في قنصلية كوينتوس ماكسيموس (أخو سكيبيو) ولوكيوس مانكينوس[٢]، كم بدا قانون جايوس ليكينيوس كراسوس[٣] مقبولًا عند الناس، وكان يتعلق بمنح الشعب حق انتخاب رجال الدين بدلًا من أن يبقى ذلك الحق حكرًا على هيئة الكهنة. وبالمناسبة، كان كراسوس أول من بدأ عادة الخطابة موجهًا وجهه نحو السوق العامة. ومع ذلك، فإنه بفضل تديننا نحن المدافعين عن الآلهة الخالدة تغلبت على بلاغة كراسوس المُبتَذَلة بسهولة. وقد تم ذلك في فترة منصبي كبرايتور قبل خمس سنوات من أن أصبح قنصلًا؛ وهكذا، فقد انتصرت القضية أكثر بقوة حجّتها الذاتية، لا بثقل المنصب الرسمي الذي كنت أشغله.

٢٦. ٩٧. لكن إن كان على خشبة المسرح، أي في التجمّع العام، حيث يوجد مجالٌ واسعٌ للأمور المختلَقة والمُزيَّفة، فإن الحقيقة، مع ذلك، تنتصر بمجرد أن تُكشف وتُوضح، فما بال الحال مع الصداقة، التي لا تقوم في جوهرها إلا على موازين الصدق؟ إذ إنك في الصداقة، إن لم "تكشف قلبك وتراه مكشوفًا" — كما يقول المثل — لن يكون لديك ثمة شيء موثوق، ولا شيء مؤكد، ولن تستطيع حتى أن تحب أو تُحَب، لأنك تجهل ماهية الحب الحقيقي. ومع أن هذا التملق، رغم كونه ضارًا، لا يمكنه أن يؤذي إلا من يقبله ويجد فيه متعة. ومن ثم، فإن الرجل الذي يُصغي بأكبر قدر من التقبّل للمتملقين، هو غالبًا مَن يُفرط في تمجيد ذاته، ويكتفي برضاه عن نفسه.

---

[١] قسم شيشرون موقف طبقات المجتمع من المتملقين، فقدم موقف طبقة النبلاء وأتبعه بموقف العامة.

[٢] لوكيوس هوستيليوس مانكينوس قنصل عام ١٤٥ ق.م..

[٣] قنصل عام ١٦٨ ق.م..

٢٦. ٩٨. في الحقيقة، الفضيلة تحب ذاتها؛ فهي تعرف نفسها تمامًا، وتدرك كم هي محبوبة. لكني لا أتحدث هنا عن الفضيلة ذاتها، بل عن مظهر الفضيلة الخارجي. فالقليلون يريدون أن يكونوا متحلين بالفضيلة حقًا، بينما الكثيرون يريدون أن يظهروا كذلك في أعين الناس. وهؤلاء يسعدهم التملق، فإذا ما قيل فيهم كلام مزيف يوافق أهواءهم، ظنّوا أن هذا الكلام الفارغ هو دليل على فضائلهم المزعومة. ولهذا، لا توجد صداقة حقيقية يكون أحد طرفيها لا يرغب في سماع الحقيقة، ويكون الآخر مستعدًا لسماع الكذب. ولولا وجود الجنود المغرورين في الكوميديا، لما ضحكنا من الطفيليين المتملقين فيها؛ إذ إن المبالغة لا تضحك إلا إذا لقيت غرورًا تتغذى عليه. ألَم يقل أحد الطفيليين: " هل شكرتني ثايس[1] شكرًا هائلًا؟" كان يكفي أن يقول: "كثيرًا"، لكنه قال: "هائلًا"! فالمتملق يُضخّم دائمًا ما يريد الشخص الذي يُتملقه أن يكون كبيرًا.

٢٦. ٩٩. ولهذا السبب، رغم أن هذا الإطراء الزائف يكون مؤثرًا فقط لدى أولئك الذين يستدرجونه ويستضيفونه بأنفسهم، فإنه يجب أيضًا تحذير الأكثر حكمة وثباتًا ليأخذوا حذرهم لكيلا ينخدعوا بالتملق الماكر. فالمتملق الصريح يراه الجميع إلا الأغبياء تمامًا؛ لكن يجب الحذر بشدة من المتملق الخفي والماكر لكيلا يتسلل؛ إذ ليس من السهل التعرف عليه، فهو غالبًا ما يتملق حتى من خلال معارضته، ويتظاهر بالجدال بينما هو في الواقع يغازل، وفي النهاية يترك نفسه يُهزم ويُقهر، حتى يبدو من خُدع وكأنه أكثر بصيرة! وما أشد القبح من أن يُخدع المرء؟ ولتجنب ذلك، يجب توخي مزيد من الحذر. "تمامًا كما خدعتني اليوم، أمام جميع الممثلين الكوميديين، أيها الشيخ الأحمق، وتلاعبت بي بكل براعة[2]".

٢٦. ١٠٠. فهذا النوع (من الخداع) حتى في المسرحيات يمثله أغبى الشخصيات، أي الشيوخ الطائشين والسذج. ولكن، لا أعرف كيف انحرفت مناقشتنا من صداقة الكاملين من البشر، أي الحكماء (وأتحدث هنا عن تلك الحكمة التي يُعتقد أن الإنسان يمكنه بلوغها)، إلى الصداقات السطحية. لذلك، دعونا نعود إلى النقطة الأولى ونختتمها أخيرًا.

---

[1] اسم مألوف للمحظيات في مسرحيات ترنتيوس الكوميدية، كما في مسرحية الخصي. انظر:
Ter. Eunuch, II.2.21 (l. 250).

[2] ورد البيتان عند كايكيليوس ستاتيوس في مسرحية بعنوان " الوريثة" Epiclerus .

٢٧. ١٠٠. الفضيلة، الفضيلة، أقولها لك يا جايوس فانيوس، ولك يا كوينتوس موكيوس (سكايڤولا)، هي التي تُكَوِّن الصداقات وتحافظ عليها. ففيها التناغم التام، وفيها الثبات، وفيها الوفاء؛ وعندما ترفع الفضيلة رأسها وتُظهر نورها الخاص، وتُبصر النور نفسه في شخص آخر وتعترف به، فإنها تنجذب نحوه، وتتلقى بالمثل أشعّته. ومن ثمّ، يشتعل الحب amor أو الصداقة amicitia؛ فكلتا الكلمتان مشتقتان من جذر يدلّ على المحبة. أما الحب فليس سوى التمسك بمن تحب، دون حاجة تدعوك لذلك، أو منفعة تبتغيها؛ ومع ذلك فإن هذه المنافع نفسها قد تزدهر من رحم الصداقة، حتى لو لم تكن أنت سعيت إليها.

٢٧. ١٠١. بهذا الحب المتبادل، نحن الشباب قد أحببنا أولئك الشيوخ: لوكيوس باولوس، وماركوس كاتو، وجايوس جالّوس، وبوبليوس ناسيكا، وتيبيريوس جراكوس (حمو سكيبيو). وهذا الحب يظهر أوضح بين الأقران، كما بيني وبين سكيبيو، ولوكيوس فوريوس، وبوبليوس روبيليوس، وسبوريوس موميوس. وبالمقابل، نحن الشيوخ نجد الراحة في حب الشباب، كما في حبكم أنتم، وكما في حب كوينتوس توبيرو؛ أما أنا فأجد متعة خاصة في صداقة الشابين بوبليوس روتيليوس وأولوس ڤيرجينيوس. وبما أن نظام حياتنا وطبيعتنا قد رُتِّب بحيث تولد أجيال من أجيال، فإن أمنيتنا الكبرى هي أن نتمكن من الوصول إلى خط النهاية، كما يُقال، مع نفس الأقران الذين خرجت معهم كما من بوابات السباق.

٢٧. ١٠٢. ولكن لأن الأمور البشرية هشة وزائلة، يجب علينا دائمًا أن نبحث عن أشخاص نحبهم ويحبوننا؛ فإذا زال الحب والمودة، زالت كل بهجة من الحياة. أما بالنسبة لي، فإن سكيبيو – رغم أنه انتُزع مني فجأة – فإنه يظل حيًا وسيحيا إلى الأبد؛ لأني أحببت فضائل ذلك الرجل، وهي فضائل لم تنقرض. إنها ليست حاضرة فقط أمام عيناي أنا الذي حملتها دائمًا بين يديه، بل ستظل مشرقة وبارزة للأجيال القادمة. لن يتطلع أحد إلى تحقيق أمور عظيمة في قلبه أو آماله، ما لم يعتبر ذكرى سكيبيو وصورته مثالًا يُحتذى.

٢٧. ١٠٣. أما أنا، فمن بين كل الأشياء التي منحتني إياها الطبيعة أو الحظ، لا أملك شيئًا يمكنني مقارنته بصداقة سكيبيو. فيها وجدت التوافق في الشؤون العامة، وفيها وجدت المشورة في الأمور الخاصة، وفيها أيضًا وجدت راحة مليئة بالبهجة. لم أسيء إليه حتى في أصغر الأمور،

على الأقل كما أعتقد، ولم أسمع منه شيئًا لم أكن أريده؛ كان لنا بيت واحد، ونمط عيش واحد، وكان ذلك مشتركًا بيننا، ليس فقط في الخدمة العسكرية، بل أيضًا في السفر والحياة الريفية.

٢٧. ١٠٤. فما عساي أن أقول عن دراساتنا الدائمة في المعرفة والتعلم؟ حيث قضينا كل وقت فراغنا بعيدًا عن أعين الناس. لو أن ذكرى هذه الأمور وذكرياتها قد ماتت معه، لما استطعت بأي حال أن أحمل حنيني إلى ذلك الرجل الأقرب والأحب. لكن هذه الذكريات لم تمت، بل تتغذى وتنمو بفكري وذاكرتي، وحتى لو حُرمت منها تمامًا، فإن سنّي نفسها تقدّم لي عزاءً عظيمًا. إذ ليس أمامي وقتٌ طويل بعد لأتحمّل وطأة هذا الفقد. ثم إن كلَّ محنةٍ قصيرة الأمد – حتى وإن كانت قاسية – ينبغي أن تكون محتملة.

هذا كل ما كان لديَّ لأقوله عن الصداقة؛ لكنني أحثُّ كليكما على أن تُقَدِّرا الفضيلة حقَّ التقدير (إذ لا وجود للصداقة من دونها)، بحيث لا تَعُدّا شيئًا – باستثناء الفضيلة – أرفعَ شأنًا من الصداقة.

الدراسة التحليلية:

إن اختيار الشخصيات التاريخية يعطي عمقًا أكبر للنقاش، وكأن النص لا يناقش "نظرية"، بل يعرض خلاصة تجربة واقعية لرجل عاش الفضيلة والصداقة مع أعظم رجالات عصره. ويشير شيشرون إلى أنه كما وظّف شخصية كاتو لتجسيد الحكمة عن الشيخوخة، فإنه الآن يختار لايليوس الحكيم وصديق سكيبيو، ليتحدث عن الصداقة.

أسلوب شيشرون درامي، يتبع تقاليد المحاورات السقراطية والأفلاطونية، حيث يُجسَّد النقاش الفلسفي في صورة حوار حيّ، وكأن الأشخاص يتحدثون بأنفسهم، لا عن طريق "قال فلان وقال علان"، لكي تبدو المحادثة حية. وبهذا الأسلوب، يجعل القارئ شاهدًا على محادثة عميقة، لا مجرد قارئ لمقالة. إنه يضفي على النص دفئًا إنسانيًا وتفاعلًا فكريًا.

يفتتح شيشرون حديثه بالإشارة إلى مصدر الرواية، وهو شيخه سكايڤولا ، الذي عرف لايليوس عن قرب. وهذه إشارة مهمة إلى نقل الحكمة عبر الأجيال، مما يضفي طابعًا تقليديًا وموثوقًا على

الموضوع. في الفلسفة الرومانية، القيمة الأخلاقية تنبع من القدوة والأسلاف. حين يقول شيشرون إنه تعلّم عن لايليوس من سكايڤولا ، فهو لا يقدّم رأيه فقط، بل ينقل "تراثًا" من الحكمة الرومانية.

يشير في بداية المحاورة إلى موقف سياسي معاصر، لكن يستحضره من أجل الانتقال إلى حوار فلسفي أعمق حول معنى الصداقة، معيدًا الحديث إلى عهد لايليوس وسكيبيو. تحدث سكايڤولا عن انشقاق حدث بين سولبيكيوس وبومبي رغم صداقتهما القديمة، وتذكر حينها حديثًا دار بين لايليوس وجايوس فانيوس وسكايڤولا نفسه عن الصداقة وذلك بعد موت سكيبيو. فشيشرون يُظهر أن الأزمات السياسية تثير أسئلة فلسفية، وهنا تحديدًا: هل يمكن أن تنهار الصداقة لأسباب سياسية؟ وهل الصداقة الحقيقية ممكنة بين رجال الدولة؟

تعريف لايليوس للصداقة:

حاول شيشرون أن يقدم تعريفًا موجزًا للصداقة، أو بالأحرى "قوة الصداقة" **(vis amicitiae)** حيث يذكر لايليوس مدى قربه من سكيبيو، ويقول إنها ببساطة التوافق في الرغبات والاهتمامات والآراء:

4.15 Sed tamen recordatione nostrae amicitiae sic fruor ut beate vixisse videar, quia cum Scipione vixerim, quocum mihi coniuncta cura de publica re et de privata fuit, quocum et domus fuit et militia communis et, id in quo est omnis **vis amicitiae**, voluntatum, studiorum, sententiarum summa consensio.

٤. ١٥ "ومع ذلك، فإن استذكاري صداقتنا يبعث في نفسي من البهجة ما يجعلني أرى حياتي سعيدة، لأني قضيتها بصحبة سكيبيو، الذي شاركني همومي في الشأن العام والخاص، وسكن معي تحت سقف واحد في الوطن، وخضت معه الحملات في الخارج، وتقاسمت معه — وهذا هو **لبّ الصداقة** كلها — اتفاقًا تامًا في الميول السياسية، وفي الاهتمامات الأدبية، وفي الرؤية."

ونجد المعنى نفسه في إحدى خطبه وبتعبيرات مشابهة:

Iam hoc fere scitis omnes quantam *vim* habeat ad coniungendas *amicitias* studiorum ac naturae similitudo. (Pro Cluentio 46)

"والآن، تعرفون جميعكم تقريبًا كم لهذه القوة من تأثير في توثيق عُرى الصداقة – تشابه الميول والطباع."

وبعد ذلك بقليل، في مناقشته للصداقة بمعناها الصحيح، يشرح لايليوس هذا التعريف ويوسعه: "فالصداقة"، كما يقول، "ليست شيئًا آخر سوى التوافق في جميع الأمور الإنسانية والإلهية، مصحوبًا بالإحسان والمودة

6.20 Est enim amicitia nihil aliud nisi omnium divinarum humanarumque rerum cum benevolentia et caritate consensio;

٦. ٢٠. " فالصداقة ليست أي شيء آخر سوى الانسجام التام في الأمور الإلهية والبشرية، مقترنٍ بحسن النية والمودة المتبادلة."

إن لايليوس يجادل، بلغة قوية بشكل خاص، بأنه لا شيء يجذب الأشياء إلى نفسها كما يجذب التشابه (similitudo) الناس إلى بعضهم البعض في الصداقة، ويستحضر لايليوس أيضًا فكرة الصديق باعتباره "أنا آخر":

21.80 est enim is qui est tamquam alter idem.

٢١. ٨٠. "فالصديق هو بمثابة الذات الأخرى."

فالتشابه الكبير بين الصديقين يوطد رباط الصداقة بينهما:

14.50 quod recte addi potest, nihil esse quod ad se rem ullam tam alliciat et attrahat quam ad amicitiam similitudo? concedetur profecto verum esse, ut bonos boni diligant adsciscantque sibi quasi propinquitate coniunctos atque natura.

١٤. ٥٠. "وهو أن لا شيء يجتذب الأشياء إليه ويشدّها بقوة كما تفعل المشابهة مع الصداقة — فسيُسلّم الجميع إذن بأن القول صحيح: أن الصالحين يحبّون الصالحين، ويضمونهم إليهم كما لو كانوا أقارب، بل كما لو جمعتهم رابطة الطبيعة ذاتها."

وفي إحدى خطبه يقول شيشرون المعنى ذاته:

Vetus est enim lex illa iustae veraeque amicitiae quae mihi cum illo iam diu est, ut idem amici semper velint, neque est ullum amicitiae certius vinculum quam consensus et societas consiliorum et voluntatum. (Pro Plancio, 5)

"فإن ذلك القانون القديم للصداقة العادلة والحقيقية، الذي يربطني به منذ زمن طويل، هو أن يريد الأصدقاء دائمًا نفس الأشياء، وليس هناك رابط للصداقة أقوى من الاتفاق والشراكة في الآراء والرغبات."

وفي محاورة " عن الواجبات" يعبر شيشرون عن قوة الصداقة التي تنبع من التشابه بين الأصدقاء:

vita autem victusque communis, consilia, sermones, cohortationes, consolationes, interdum etiam obiurgationes in amicitiis vigent maxime, estque ea iucundissima amicitia, quam similitudo morum coniugavit. (De Off. 1, 58)

" فالحياة المشتركة والمعايشة، والمشورة، والأحاديث، والتشجيع، والتعزية، وأحيانًا حتى التوبيخ، تزدهر بقوة في إطار الصداقة. وألذُّ صداقة هي تلك التي يربطها تشابُه الأخلاق".

وفي محاورة " عن حدود الخير والشر" يوضح شيشرون أن الصداقة تقوم على التقارب في الكثير من الأمور:

et Lucullus mihi versatur ante oculos, vir cum virtutibus omnibus excellens, tum mecum et amicitia et omni voluntate sententiaque coniunctus. (De Fin. 3, 8)

" كما أن لوكولوس حاضرٌ أمام عينيّ، رجلٌ لا يمتاز بكل الفضائل فحسب، بل كان متحدًا معي بالصداقة والإرادة والرأي التام".

ويوضح شيشرون أن الحياة لا تحلو إلا بوجود الأصدقاء:

15.55 tamen vita inculta et deserta ab amicis non possit esse iucunda.

١٥. ٥٥. " فإن الحياة تبقى قاحلة وغير سعيدة بدون الأصدقاء."

ونجد المعنى نفسه في عمله "عن حدود الخير والشر"، إذ يقول:

quod quia nullo modo sine amicitia firmam et perpetuam iucunditatem vitae tenere possumus neque vero ipsam amicitiam tueri, nisi aeque amicos et nosmet ipsos diligamus, idcirco et hoc ipsum efficitur in amicitia, et amicitia cum voluptate conectitur. (De Finibus book 1, 67)

"ولأننا بأي حال من الأحوال لا نستطيع أن نحافظ على بهجة ثابتة ودائمة للحياة بدون صداقة، ولا نستطيع حقًا أن نحافظ على الصداقة نفسها إلا إذا أحببنا الأصدقاء وأنفسنا على حد سواء، لذلك فإن هذا الأمر نفسه يتحقق في الصداقة، وترتبط الصداقة باللذة."

وفي موضع آخر من محاورة "لايليوس عن الصداقة" يقول إن الطبيعة تحتم على الإنسان اكتساب الصداقات وعدم العزلة:

23.88 Verum ergo illud est quod a Tarentino Archyta, ut opinor, dici solitum nostros senes commemorare audivi ab aliis senibus auditum: 'si quis in caelum ascendisset naturamque mundi et pulchritudinem siderum perspexisset, insuavem illam

admirationem ei fore; quae iucundissima fuisset, si aliquem, cui narraret, habuisset.' Sic natura solitarium nihil amat semperque ad aliquod tamquam adminiculum adnititur; quod in amicissimo quoque dulcissimum est.

٢٣. ٨٨. " إذن فصحيح ذلك القول الذي سمعت شيوخنا يروونه عن شيخ آخر، وهو ما كان يقوله أرخيتاس من تارنتوم، كما أعتقد: 'لو صعد أحد إلى السماء وأبصر طبيعة الكون وجمال النجوم، لكان إعجابه بذلك بلا متعة؛ ولكان ألذ بكثير لو كان لديه من يشاركه هذا المشهد.' هكذا فإن الطبيعة لا تحب العزلة، وهي دائمًا تتكئ على شيء كسند؛ وهذا السند يكون في ألذ صوره عندما يكون الصديق الحميم."

ويؤكد على فكرة أن الصداقة هي العلاج الناجع للوحدة والعزلة في مؤلفه "عن حدود الخير والشر"، حيث يقول:

nam cum solitudo et vita sine amicis insidiarum et metus plena sit, ratio ipsa monet amicitias comparare, quibus partis confirmatur animus et a spe pariendarum voluptatum seiungi non potest. (De Fin. 1, 66)

"إذ بينما الوحدة والحياة بلا أصدقاء مليئتان بالمكائد والخوف، فإن التفكير السديد نفسه يحث على اكتساب الصداقات، التي بها تقوى الروح ولا يمكن فصلها عن الأمل في بلوغ الملذات."

ويؤكد على المعنى ذاته في عمله "مناقشات توسكولانية":

quam huic erat miserum carere consuetudine amicorum, societate victus, sermone omnino familiari, homini praesertim docto a puero et artibus ingenuis erudito, musicorum vero perstudioso; poëtam etiam tragicum – (Tusc. Disput. 5, 63)

"كم كان بائسًا على هذا [الشخص] أن يُحرم من صحبة الأصدقاء، ومن مشاركة الحياة، ومن الحديث الوديّ تمامًا، وخاصة بالنسبة لرجل مثقف منذ صغره ومُلمّ بالفنون الحرة، بل ومحبّ للموسيقى بشغف؛ وشاعرًا مأساويًا أيضًا"

يستكشف لايليوس أساس تشابه الأصدقاء، ويستحضر ما وصل إلى حد كونه فكرة فلسفية يونانية شائعة في عصره – وهي أن الرجال الصالحين فقط هم من يمكنهم أن يكونوا أصدقاء:

5.18 Sed hoc primum sentio, nisi in bonis amicitiam esse non posse;

٥. ١٨. " لكن، بادئ ذي بدء فإنني أشعر بهذا الأمر: أن الصداقة لا يمكن أن توجد إلا بين الأخيار؛"

ثم يقوم بتعريف من هم الأخيار:

5.19. Qui ita se gerunt, ita vivunt ut eorum probetur fides, integritas, aequitas, liberalitas, nec sit in eis ulla cupiditas, libido, audacia, sintque magna constantia, ut ii fuerunt modo quos nominavi, hos viros bonos, …..

٥. ١٩. "من يعيش ويعمل بما يدل على الأمانة والاستقامة، والعدل والكرم، ومن لا تسيّره الأهواء ولا تحكمه النزوات أو الغطرسة، ومن يتمتع بقوة خلقية راسخة — رجال كهؤلاء الذين ذكرت — فهؤلاء هم الأخيار في نظرنا، ..."

ونفس التعريف نجده في عمله "عن الواجبات"، حيث يقول:

Magnum est enim eadem habere monumenta maiorum, eisdem uti sacris, sepulchra habere communia. Sed omnium societatum nulla praestantior est, nulla firmior, quam cum viri boni moribus similes sunt familiaritate coniuncti; illud enim honestum, quod saepe dicimus, etiam si in alio cernimus, [tamen] nos movet atque illi in quo id inesse videtur amicos facit. (De Off. 1, 55)

"عظيم هو امتلاك نفس آثار الأجداد، واستخدام نفس الشعائر المقدسة، وامتلاك قبور مشتركة. لكن من بين كل الروابط، لا يوجد رابط أفضل ولا أقوى من الرابط الذي يجمع الرجال الصالحين المتشابهين في الأخلاق؛ لأن ذلك الشرف، الذي نذكره كثيرًا، حتى لو رأيناه في شخص آخر، فإنه يحركنا ويجعل من يبدو أنه يمتلكه صديقًا".

وأكد على فكرته في الفقرة التي تليها:

Nihil autem est amabilius nec copulatius, quam morum similitudo bonorum; in quibuse nim eadem studia sunt, eaedem voluntates, in iis fit, ut aeque quisque altero delectetur ac se ipso, efficiturque id, quod Pythagoras vult in amicitia, ut unus fiat ex pluribus. Magna etiam illa communitas est, quae conficitur ex beneficiis ultro et citro datis acceptis, quae et mutua et grata dum sunt, inter quos ea sunt firma devinciuntur societate. (De Off. 1, 56)

"ما أشدَّ حلاوةَ الصداقةِ وأمتنَها عُرَى حين تلتقي النفوسُ على فضيلةٍ واحدة! فإذا تشابهتِ الهوى، واتفقتِ الإرادة، أصبح الصديقُ سُرَّةَ صديقه، كما أراد فيثاغورس: ذوبانُ الاثنين في روحٍ واحدةٍ. ولا تُنسى تلك الرابطةُ التي يصنعها المعروفُ يَأْخُذُهُ الطرفانِ ويعطيانِه، فتبقى بينهما أواصرُ لا تنفصم".

ورغم أن هذه الفكرة تعود إلى الفكر اليوناني فإن الصيغة التي كان لايليوس أكثر ألفة بها هي صيغة معلمه باناتيوس، الذي عدل فكرة الرواقيين بأن الصداقة الحقيقية لا توجد إلا بين حكماء الرواقيين من خلال افتراض "رجل صالح" أكثر واقعية (vir bonus) ، وبالتالي جعل صداقة الفضيلة الرواقية حقيقة أكثر قابلية للتحقيق. وهي بالضبط نظرية باناتيوس التي تجد تعبيرًا لها في محاورة " لايليوس عن الصداقة". يجادل لايليوس بأن الفضيلة ليست صلبة وحديدية في الصداقة، بل رقيقة وقابلة للطرق:

13.48 Neque enim sunt isti audiendi qui virtutem duram et quasi ferream esse quandam volunt; quae quidem est cum multis in rebus, tum in amicitia tenera atque tractabilis, ut et bonis amici quasi diffundatur et incommodis contrahatur. Quam ob rem angor iste, qui pro amico saepe capiendus est, non tantum valet ut tollat e vita amicitiam, non plus quam ut virtutes, quia non nullas curas et molestias adferunt, repudientur.

١٣. ٤٨. " إن أولئك الذين يتصوّرون الفضيلة صلابةً قاسية كأنها من حديد، لا يُصغى إليهم. إذ الفضيلة، وإن كانت صارمة في مواطن كثيرة، فإنها في الصداقة رقيقة مرنة، تنبسط مع أفراح الصديق، وتنكمش مع أحزانه. لذلك، فإن هذا القلق الذي يستولي على النفس من أجل الصديق، لا يكفي ليُبرّر نفي الصداقة من الحياة، تمامًا كما أن الفضائل لا تُنكر، رغم ما قد تحمله من متاعب وهموم."

فالرجال الصالحون بالنسبة للايليوس هم أولئك الذين "يسيطرون على رغباتهم" و "يسعدون بالإنصاف والعدل " ويفعلون أي شيء من أجل صديق، لكنهم لا يطلبون أبدًا أي شيء مشين. ويعكس تعريف لايليوس للصداقة تجارب ومواقف رومانية أصيلة تجاه الصداقة، بينما يُظهر في

الوقت نفسه أوجه تشابه لافتة مع الأفكار اليونانية القديمة. ويمكن تقسيم مراحل تطور الصداقة إلى ما يلي:

المرحلة الأولى: بداية الصداقة

الأساس الأول لقيام الصداقة بين الناس هو الود والارتياح النفسي للشخص الآخر:

8.26 Laelius: Amor enim, ex quo amicitia nominata est, princeps est ad benevolentiam coniungendam.

لايليوس " فالمحبة (amor) — التي اشتُق منها اسم الصداقة (amicitia) — هي الأصل الأول في توحيد القلوب بالود."

وعن أن أصل كلمة الصداقة قد أُشتق من كلمة الحب يقول في محاورة "عن طبيعة الآلهة":

carum ipsum verbum est amoris, ex quo amicitiae nomen est ductum; (Cic. DND 1, 122)

"الحب هو جوهر كلمة المودة، ومنه وُلدت الصداقة."

ويشير لايليوس إلى أن الصداقة تبدأ أولاً بملاحظة فضائل الآخر التي تتطابق مع فضائل المرء نفسه؛ ثم يقوى الحب (amor) نتيجة لتلقي المنافع (beneficia) ، والاهتمام بمصالح بعضنا البعض(studio) ، وتكوين الألفة (consuetudo) ، وفي هذا الصدد يقول شيشرون:

21.79 Digni autem sunt amicitia quibus in ipsis inest causa cur diligantur.

٢١. ٧٩. " أما الجديرون بالصداقة فهم أولئك الذين يحملون في أنفسهم سببًا للحب."

وأكد على هذا المعنى في قوله:

8.27 Quapropter a natura mihi videtur potius quam ab indigentia orta amicitia, applicatione magis animi cum quodam sensu amandi quam cogitatione quantum illa res utilitatis esset habitura.

٨. ٢٧. "ومن ثم يبدو لي أن الصداقة تنبع من الطبيعة أكثر مما تنشأ عن الحاجة، ومن ميل الروح للارتباط بشعور بالمحبة أكثر من كونها حسابًا للمنافع التي من المحتمل أن تمنحها الصداقة."

وأساس هذا الحب ما يمتلكه الصديق من فضيلة:

14.48 Cum autem contrahat amicitiam, ut supra dixi, si qua significatio virtutis eluceat, ad quam se similis animus applicet et adiungat, id cum contigit, amor exoriatur necesse est.

١٤. ٤٨. " وحين تنشأ الصداقة — كما ذكرت سابقًا — فإنما تنشأ حين تلوح بارقة من الفضيلة، فينجذب إليها قلب مشابه، ويلتحم بها. وحين يقع هذا اللقاء، فلا بدّ للحبّ أن يولد."

فالفضيلة كفيلة بأن نحب حتى من لم نرهم:

8.28 Nihil est enim virtute amabilius, nihil quod magis adliciat ad diligendum, quippe cum propter virtutem et probitatem etiam eos, quos numquam vidimus, quodam modo diligamus.

٨. ٢٨. " لأنه ليس ثمة شيء أحب إلينا من الفضيلة، فهي تجذبنا بقوة إلى المحبة، إذ إننا، بفضل فضيلة البعض واستقامتهم، نحب أحيانًا من لم نرهم قط."

ويؤكد على هذا المعنى في نهاية المحاورة:

27.100 Virtus, virtus, inquam, C. Fanni, et tu, Q. Muci, et conciliat amicitias et conservat. In ea est enim convenientia rerum, in ea stabilitas, in ea constantia; amare autem nihil est aliud nisi eum ipsum diligere, quem ames, nulla indigentia, nulla utilitate quaesita; quae tamen ipsa efflorescit ex amicitia, etiamsi tu eam minus secutus sis.

٢٧. ١٠٠. " الفضيلة، الفضيلة، أقولها لك يا جايوس فانيوس، ولك يا كوينتوس موكيوس (سكايڤولا)، هي التي تُكَوِّن الصداقات وتحافظ عليها. ففيها التناغم التام، وفيها الثبات، وفيها الوفاء؛"

" أما الحب فليس سوى التمسك بمن تحب، دون حاجة تدعوك لذلك، أو منفعة تبتغيها؛ ومع ذلك فإن هذه المنافع نفسها قد تزدهر من رحم الصداقة، حتى لو لم تكن أنت سعيت إليها."

والحق إننا لنجد التطبيق العملي لكلمات شيشرون النظرية في بعض رسائله، ففي رسالة وجهها إلى صديقه ماتيوس يقول له:

quantum memoria repetere praeterita possum, nemo est mihi te amicus antiquior. sed vetustas habet aliquid commune cum multis, amor non habet. dilexi te quo die cognovi, meque a te diligi iudicavi. (Ad Fam. 11.27)

" بقدر ما تستطيع ذاكرتي استحضار الماضي، لا يوجد صديق أقدم منك عندي. لكن القِدَمَ له ما تشترك فيه مع الكثيرين، أما المحبة فلا. لقد أحببتك منذ اليوم الذي تعرفت عليك فيه، واعتقدت أنك تبادلني المشاعر نفسها."

وفي عمله " عن أجزاء الخطبة" يقول:

Amicitiae autem caritate et amore cernuntur; (De Partitione Oratoria 88)

" أما الصداقات، فتُرى بالحب والمودة؛.."

وفي عمله "عن القوانين" يقدم هذا السؤال ويقول:

Ubi illa sancta amicitia, si non ipse amicus per se amatur toto pectore, ut dicitur? (De Leg. 1, 49)

"أين تلك الصداقة المقدسة، إن لم يُحب الصديق نفسه لذاته بكل القلب، كما يُقال؟"

وفي عمله " عن حدود الخير والشر" يؤكد على هذا المعنى:

etiamsi nulla sit utilitas ex amicitia, tamen ipsi amici propter se ipsos amentur. (De Fin. 1, 69)

"حتى لو لم تكن هناك منفعة من الصداقة، فإن الأصدقاء أنفسهم يُحبون لذاتهم".

ويؤكد على المعنى ذاته في العمل ذاته:

Amicitiae vero locus ubi esse potest aut quis amicus esse cuiquam, quem non ipsum amet propter ipsum? (De Fin. 2, 78)

"ولكن أين يمكن أن يكون موضع الصداقة، أو من يستطيع أن يكون صديقًا لأحد لا يحبه لذاته؟"

ويعرف شيشرون معنى الحب في الصداقة بأنه حب الخير للصديق:

quid autem est amare, e quo nomen ductum amicitiae est, nisi velle bonis aliquem affici quam maximis, etiamsi ad se ex iis nihil redundet? (Cic. De Fin. 2, 78)

"ولكن ما هو الحب، الذي اشتُق منه اسم الصداقة، إلا أن تتمنى أن ينعم شخص ما بأكبر قدر ممكن من الخيرات، حتى لو لم يعد عليك منها شيء؟"

ويستنكر شيشرون قيام الصداقة على أساس المنفعة وبدون أن تقوم في الأساس على الحب المتبادل:

an vero, si fructibus et emolumentis et utilitatibus amicitias colemus, si nulla caritas erit, quae faciat amicitiam ipsam sua sponte, vi sua, ex se et propter se expetendam, dubium est, quin fundos et insulas amicis anteponamus? (Cic. De Fin. 2, 83)

" أما حقًا، إذا كنا نرعى الصداقات من أجل ثمارها ومنافعها ومصالحها، وإذا لم يكن هناك أي حب يجعل الصداقة نفسها مرغوبة بذاتها، وبقوتها الخاصة، ومن نفسها ولذاتها، فهل هناك شك في أننا سنفضل المزارع والجزر على الأصدقاء؟"

وهذا الحب المتبادل بين الأصدقاء يجب أن يكون له ضوابط يقبلها العقل والمنطق:

ne optandum quidem est in amicitia, ut me ille plus quam se, ego illum plus quam me; perturbatio vitae, si ita sit, atque officiorum omnium consequatur. (Tusc. Disput.3, 73)

"بل ليس من المرغوب فيه في الصداقة أن يحبني هو أكثر من نفسه، وأن أحبه أنا أكثر من نفسي؛ فسيتبع ذلك اضطراب في الحياة وفي جميع الواجبات".

المرحلة الثانية: الثقة والوفاء "fides"

يستخدم لايليوس لغة قوية لوصف دور "الثقة والوفاء" (fides) في الصداقة:

18.65 Firmamentum autem stabilitatis constantiaeque eius, quam in amicitia quaerimus, fides est; nihil est enim stabile quod infidum est. Simplicem praeterea et communem et consentientem, id est qui rebus isdem moveatur, eligi par est, quae omnia pertinent ad fidelitatem; neque enim fidum potest esse multiplex ingenium et tortuosum, neque vero, qui non isdem rebus movetur naturaque consentit, aut fidus aut stabilis potest esse.

١٨. ٦٥. "أما أساس الثبات والاستقرار الذي نبحث عنه في الصداقة فهو الوفاء؛ فليس هناك شيء مستقر إذا كان غير موثوق. ويجب أيضًا اختيار الشخص البسيط والمتشارك والمتناغم، أي الذي يتحرك بنفس الدوافع، وكل هذه الصفات ترتبط بالوفاء. فلا يمكن لشخص متعدد الوجوه

وملتوٍ أن يكون وفيًا، ولا يمكن لمن لا تحركه نفس الدوافع ولا يتناغم طبعًا أن يكون موثوقًا أو ثابتًا."

يدعو لايليوس إلى سبر غور الأصدقاء المحتملين عن طريق ائتمانهم بمبالغ صغيرة من المال أو بسلطة؛ وهكذا، فإن ما يعنيه لايليوس عندما يقول إن الأصدقاء القدامى هم الأفضل لأنهم خضعوا للاختبار وثبتت صدقهم، أي أن إخلاصه قد تم اختباره وتقييمه وزيادته على مدى عمر الصداقة، حيث يُظهر الأصدقاء إخلاصهم من خلال المراقبة المستمرة لالتزامات الصداقة مع تقدم علاقتهم.

إن إحدى أكثر الطرق فعالية لإدامة الثقة في العلاقة، من وجهة نظر لايليوس، هي صراحة الحديث وقول الحقيقة. فالشخص الصريح جدير بالثقة (fideles: 65) "والصديق الجيد هو من يمكنك التحدث معه عن أي شيء، تمامًا كما تفعل مع نفسك:

6.22 Quid dulcius quam habere quicum omnia audeas sic loqui ut tecum?

٦. ٢٢. "فما أعذب أن يكون لديك من تجرؤ أن تفتح له قلبك كما لو كنت تكلّم نفسك؟"

جانب آخر من صراحة الحديث بين الأصدقاء يتناوله لايليوس يتعلق بعلاقة الطاغية بمن حوله، فهو ليس لديه أصدقاء حقيقيون، بل الكثير من المتملقين عديمي الوفاء في متناوله (الفقرتان ٩١-٩٢). وأحيانًا يحتاج الأصدقاء إلى النصيحة والنقد – ويجب قبول ذلك بأسلوب لطيف (amice) وبنوايا حسنة (الفقرة ٨٨). فقول الحقيقة وتوجيه النقد بأسلوب غير لطيف قد يؤدي إلى المفارقة، ويستشهد لايليوس، بقول مأثور عن الشاعر ترنتيوس في مسرحية "أندريا":

24.89 Sed nescio quo modo verum est, quod in Andria familiaris meus dicit:
Obsequium amicos, veritas odium parit.

٢٤. ٨٩. "ولكن هناك شيء صحيح بطريقة ما في قول صاحبي في مسرحية "أندريا":

" المجاملة تصنع الأصدقاء، والحقيقة تجلب الكراهية."

وهكذا يوضح لايليوس أن الالتزام الصارم بالحقيقة يسمم الصداقة، لأن النقد المستمر والمتذمر، سواء كان مطلوبًا أم لا، يمكن أن يؤدي إلى الكراهية؛ كما أن المجاملة المفرطة، من ناحية أخرى،

ربما تكون أكثر خطورة لأنها تتساهل مع سوء الفعل – وقد تشجع السلوك الاستبدادي (الفقرة ٨٩). وحل لايليوس لهذه المعضلة هو اقتراح أن يقدم الأصدقاء النصيحة بلباقة، دون قسوة أو إهانة مفرطة (الفقرة ٨٩)؛ ويجب على أولئك الذين يتلقون النقد ألا يتجاهلوه، وإلا فإنهم سيضلون أخلاقيًا، لأنهم لن ينزعجوا مما ينبغي أن يكونوا عليه، أي من سوء فعلهم، بل من توبيخ صديق لهم عليه (الفقرة ٩٠).

علاوة على ذلك، لا يوجه الصديق الوفي اتهامات باطلة ضد شريكه، ولا يتحملها من الآخرين، بل يدفعها (الفقرة ٦٥). وفي كل هذه النصائح، تكون الثقة هي الإطار الضمني: وينبغي للمرء أن يتحلى بالشجاعة لينتقد – ويخاطر بإزعاج – صديقًا لأنه يثق في أن الصديق الحقيقي سيتحدث بصدق؛ وبالنظر من الاتجاه الآخر، ينبغي للمرء أيضًا أن يتقبل النقد بلطف لأن تجاهله يؤدي إلى انحلال أخلاقي. وهكذا، فإن "fides" ، التي تحمل في جوهرها معنى "الثقة" الداخلية، أي الثقة المنبثقة من داخل الشخص، مطلوبة لكي تزدهر الصداقة وتنمو. ووفقًا للايليوس، لا يمكن للصداقة أن تديم نفسها على المدى الطويل ما لم تؤسس وتستمر في إظهار الإخلاص. وإحدى طرق تحقيق ذلك هي الصراحة – الانفتاح، والحديث الواضح، وأحيانًا حتى النقد – بين الأصدقاء. بالطبع، هذا مجرد جزء مما يبقي الصداقة قائمة، ويجب أن تستكمل بالمظاهر المرئية للثقة من خلال تبادل الهدايا والخدمات. وبالنسبة للرومان، كان أداء الخدمات للأصدقاء طقسًا اجتماعيًا وثقافيًا مهمًا.

وقد تحدث شيشرون عن الإخلاص بين الأصدقاء في الكثير من مؤلفاته، كما في دفاعه عن روسكيوس أمرينوس:

Nam neque mandat quisquam fere nisi amico neque credit nisi ei quem fidelem putat. (Pro Ros. Amer. 112)

"إذ لا يكاد أي شخص يأتمن أحدًا على شيء إلا إذا كان صديقه، ولا يثق إلا بمن يعتبره مخلصًا".

ويشكو شيشرون في رسالة وجهها إلى أحد أصدقاءه بقوله:

si esset in iis fides in quibus summa esse debebat, non laboraremus. (ad Fam. 1, 1, 4)

"لو كان هناك إخلاص لدى أولئك الذين يجب أن يكون الإخلاص فيهم في أعلى درجاته، لما كنا نعاني".

ونجد شكوى مماثلة في رسالة إلى أتيكوس:

quam omnia essent ex sententia, si nobis animus, si consilium, si fides eorum quibus credidimus, non defuisset! (ad Att. 3, 20, 1)

"كم كانت الأمور ستكون وفقاً لرغبتنا، لو لم تخذلنا الشجاعة، ولو لم تخذلنا الحكمة، ولو لم يخذلنا إخلاص أولئك الذين وثقنا بهم"!

وفي خطبته "دفاعًا عن روسكيوس أمرينوس" يعبر عن إصابة الإنسان بالأذى بسبب الثقة في بعض الأصدقاء غير المخلصين:

Perditissimi est igitur hominis simul et amicitiam dissolvere et fallere eum qui laesus non esset, nisi credidisset. (Pro Ros. Amer. 112)

"فإن من أشد الناس إثمًا ذلك الذي ينقض عرى الصداقة ويخدع من لم يكن ليُصاب بأذى لولا ثقته به".

ومن أهم واجبات الصداقة رعاية الكبير للصغير وحماية القوي للضعيف، ولابد من أن يترجم ذلك على أرض الواقع فهو برهان على الثقة والإخلاص، وعبر عن ذلك شيشرون في كل مؤلفاته، ونستشهد على ذلك ببعض الأمثلة من رسائله التي توضح أهمية الإخلاص بين الأصدقاء:

te tamen oramus, quibuscumque erimus in terris, ut nos liberosque nostros ita tueare ut amicitia nostra et tua fides postulabit. (ad Fam. 2, 16, 7)

"ومع ذلك، نرجوك، أينما كنا على الأرض، أن تحمينا وأبناءنا كما تتطلب صداقتنا وإخلاصك".

sed cum te ex adulescentia tua in amicitiam et fidem meam contulisses, semper te non modo tuendum mihi sed etiam augendum atque ornandum putavi. (ad Fam. 7, 17, 2)

"ولكن بما أنك، منذ شبابك، قد وضعت نفسك في صداقتي وإخلاصي، فقد اعتبرت دائماً أنه يجب علي ليس فقط أن أحميك، بل أيضاً أن أزيد من شأنك وأزينك".

quibus enim pro meis immortalibus beneficiis carissima mea salus et meae fortunae esse debebant, cum propter eorum scelus nihil mihi intra meos parietes tutum, nihil insi diis vacuum viderem, novarum me necessitudinum fidelitate contra veterum perfidiam muniendum putavi. (ad Fam. 4, 14, 3)

"لأن أولئك الذين كان يجب أن تكون سلامتي وثروتي عزيزة عليهم جدًا، بسبب منافعي الخالدة، عندما لم أجد أي شيء آمنًا داخل جدراني، ولا أي شيء خاليًا من المكائد بسبب شرهم، اعتقدت أنه يجب علي حماية نفسي بإخلاص علاقات جديدة ضد خيانة العلاقات القديمة".

Pomptinus, qui a te tractatus est praestanti ac singulari fide, cuius tui benefici sum ego t estis, praestat tibi memoriam benevolentiamque quam debet. (ad Fam. 3, 10, 3)

"بومبتينوس، الذي تعاملت معه بإخلاص فائق ومميز، وأنا شاهد على هذا المعروف منك، يُظهر لك الذكرى والود الذي يدين به لك".

si honos is fuit, maiorem tibi habere non potui; si fides, maiorem tibi habui quam paene ipsi mihi; (ad Fam. 5, 20, 2)

"إذا كان ذلك شرفًا، لم أستطع أن أقدم لك شرفًا أعظم؛ إذا كان إخلاصًا، فقد كان إخلاصي لك أعظم من إخلاصي لنفسي تقريبًا؛"

me tuorum consiliorum adiutorem, dignitatis fautorem, omnibus in rebus tibi amicissimum <u>fide</u>lissimumque cognosces. (ad Fam. 10, 10, 2)

"ستجدني مساعدًا في مشوراتك، وداعماً لكرامتك، وفي جميع الأمور، الصديق الأكثر وفاءً وإخلاصًا لك".

atque utebar familiarissime Caesare, Pompeium faciebam plurimi; sed erat meum consilium cum <u>fide</u>le Pompeio tum salutare utrique. (ad Fam. 6, 6, 4)

"وكنت أتعامل مع قيصر بمنتهى الألفة، وكنت أقدّر بومبي كثيرًا؛ لكن نصيحتي كانت مخلصة لبومبي وفي نفس الوقت مفيدة لكليهما".

cum viderem me a Caesare honorificentissime tractari et unice diligi hominisque liberalitatem incredibilem et singularem <u>fide</u>m nossem, sic ei te commendavi et tradidi ut gravissime diligentissimeque potui. (ad Fam. 7, 17, 2)

" عندما رأيت أن قيصر يعاملني بأقصى درجات الشرف ويحبني بشكل فريد، وعرفت كرم الرجل الذي لا يُصدق وإخلاصه المميز، أوصيته بك وسلمتك إليه بأكثر الطرق جدية ودقة ممكنة".

كانت صداقة شيشرون بماتيوس ذات طابع خاص فقد كان حريصًا على التوفيق بين شيشرون وقيصر، وقد عبر شيشرون عن امتنانه له وإخلاصه له:

Tandem aliquando Romae esse coepimus. quid defuit nostrae familiaritati? in maximis rebus, quonam modo gererem me adversus Caesarem, usus tuo consilio sum, in reliquis officio. (ad Fam. 11, 27, 5)

" وأخيرًا بدأنا نلتقي في روما. ماذا كان ينقص صداقتنا الحميمة؟ في أهم الأمور، خاصة في كيفية تعاملي مع قيصر، استعنتُ بمشورتك. وفي الأمور الأخرى، كان إخلاصك لي لا يُضاهى."

والإخلاص والوفاء لا ينتهيان بموت الصديق بل يظهران في أبهى صورة بعد وفاته، فهذا ماتيوس صوت في مجلس الشيوخ لصالح مشروع قرار قدمه أوكتافيوس من أجل إقامة الألعاب تكريمًا لروح قيصر، وهذا الأمر أزعج الجمهوريين ومن بينهم شيشرون، ولكنه في الوقت نفسه رأى فيه قدر كبير من الوفاء لصديق فارق الحياة ولهذا يقول له:

Sed te, hominem doctissimum, non fugit, si Caesar rex fuerit, quod mihi quidem videtur, in utramque partem de tuo officio disputari posse, vel in eam qua ego soleo uti, laudandam esse fidem et humanitatem tuam qui amicum etiam mortuum diligas, vel in eam qua non nulli utuntur, libertatem patriae vitae amici anteponendam. (ad Fam. 11, 27, 8)

" لكنك – أيها الرجل العالم – تدرك جيداً أنه لو كان قيصر ملكًا (وهو ما أراه شخصيًا صحيحًا)، لكان يمكن مناقشة واجبك من وجهتين: الأولى التي أتبناها عادةً، وهي تثمين إخلاصك وإنسانيتك في حبك لصديق حتى بعد موته، والثانية التي يتبناها بعضهم، وهي تقديم حرية الوطن على حياة الصديق."

وقد رد ماتيوس على رسالة شيشرون هذه برسالة يدافع فيها عن إخلاصه لقيصر كصديق حميم:

Nota enim mihi sunt quae in me post Caesaris mortem contulerint. vitio mihi dant quod mortem hominis necessari graviter fero atque eum quem dilexi perisse indignor; aiunt enim patriam amicitiae praeponendam esse, proinde ac si iam vicerint obitum eius rei publicae fuisse utilem. sed non agam astute: fateor me ad istum gradum sapientiae non pervenisse. neque enim Caesarem in dissensione civili sum

secutus, sed amicum, quamquam re offendebar, tamen non deserui, neque bellum umquam civile aut etiam causam dissensionis probavi, quam etiam nascentem exstingui summe studui. itaque in victoria hominis necessari neque honoris neque pecuniae dulcedine sum captus, quibus praemiis reliqui, minus apud eum quam ego cum possent, immoderate sunt abusi. (ad Fam. 11, 28, 1)

" لأنني على علم بما أُلقي عليّ من تهم بعد مقتل قيصر. إنهم يعيبون عليّ حزني الشديد على رجل عزيز، وسخطي على فقدان من أحببت. يقولون إن الوطن يجب أن يُقدّم على الصداقة، وكأنهم قد أثبتوا بالفعل أن موته كان لمصلحة الدولة. لكنني لن أجادل بمكر: أعترف أنني لم أبلغ تلك المرتبة من الحكمة. فلم أتبع قيصر في النزاع المدني كزعيم، بل كصديق، ومع أنني كنت غير راض عن سياسته، فإنني لم أتخل عنه. ولم أوافق يوماً على الحرب الأهلية أو حتى أسباب الخلاف، بل سعيت بكل جهدي لإخمادها منذ بدايتها. ولذلك، عند انتصار صديقي العزيز، لم أُغرَ بمنصب ولا مال، بينما استخدم الآخرون هذه المكافآت بإفراط، رغم أنهم كانوا أقل مقربة منه مني."

واسترسل في الدفاع عن إخلاصه لقيصر بقوله:

At ludos quos Caesaris victoriae Caesar adulescens fecit curavi. at id ad privatum officium, non ad statum rei publicae, pertinet. quod tamen munus et hominis amicissimi memoriae atque honoribus praestare etiam mortui debui et optimae spei adulescenti ac dignissimo Caesare petenti negare non potui. (ad Fam. 11, 28, 1)

" أما الألعاب التي أقامها الشاب قيصر احتفالاً بانتصاره، فقد توليتُ الإشراف عليها. لكن هذا يندرج تحت الواجب الشخصي، لا الشأن العام. ومع ذلك، كان عليّ أن أؤدي هذا الواجب لذكرى صديق عزيز ولتكريمه حتى بعد موته، ولم أستطع أن أرفض طلب شاب واعد وابن قيصر الجدير بكل تقدير."

المرحلة الثالثة: الصداقة وتبادل المنافع

يطرح شيشرون قضية مهمة وهي هل تقوم الصداقة من أجل تبادل المنافع:

9.29 Quam si qui putant ab imbecillitate proficisci, ut sit per quem adsequatur quod quisque desideret, humilem sane relinquunt et minime generosum, ut ita dicam, ortum amicitiae, quam ex inopia atque indigentia natam volunt. Quod si ita esset, ut quisque minimum esse in se arbitraretur, ita ad amicitiam esset aptissimus; quod longe secus est.

٩. ٢٩. " ومن يرى أن الصداقة تنبع من الضعف، ومن الحاجة إلى من يعين على بلوغ ما نرغب فيه، فهو لا شكّ ينسب إلى الصداقة أصلًا وضيعًا، لا نُبْل فيه ولا رُقيّ، إن صحّ التعبير، إذ يجعلها وليدة فقرٍ وعوز. ولكن لو كان الأمر كذلك (أي لو كانت الصداقة قائمة على الضعف)، لكان كل من يرى في نفسه ضعفًا هو الأنسب للصداقة؛ وهذا بعيد كل البعد عن الواقع."

ويضيف أن تبادل المنافع يجب أن يكون ثمرة لرباط الصداقة وليس سببًا لحدوثها:

14.51 Atque etiam mihi quidem videntur, qui utilitatum causa fingunt amicitias, amabilissimum nodum amicitiae tollere. Non enim tam utilitas parta per amicum quam amici amor ipse delectat, tumque illud fit, quod ab amico est profectum, iucundum, si cum studio est profectum; ...Non igitur utilitatem amicitia, sed utilitas amicitiam secuta est.

١٤. ٥١. " بل إنني أعتقد، في قرارة نفسي، أن أولئك الذين يتصوّرون أن الصداقات تُصنع لأجل المنفعة، إنما يقوّضون أجملَ رباط في الصداقة، ويمحون جوهرها. فما يبهج في الصداقة ليس ما يُجنى منها، بل الحبّ نفسه الذي يربطنا بالصديق. ولا يكون العطاء الذي يأتي من الصديق مُفرِحًا إلا إذا أتى عن رغبة ومحبّة.... إذًا، لم تكن المنفعة سببًا في نشوء الصداقة، بل كانت هي ثمرةً لاحقة لها."

أكد شيشرون على هذا المعنى في أكثر من موضع في محاورة "لايليوس عن الصداقة"، ولكن بالنظر إلى مؤلفات شيشرون الأخرى نجد أنه يتأجرح بين التأكيد على هذا المعنى أو قول أن تبادل المنافع من أهم أساسيات الصداقة، وهذا ما نراه بوضوح في خطبته "دفاعًا عن روسكيوس أمرينوس":

Idcirco amicitiae comparantur ut commune commodum mutuis officiis gubernetur. (Pro Ros. Amer. 111)

"ولهذا السبب تُقام الصداقات، لكي تُدار المصلحة المشتركة من خلال الخدمات المتبادلة".

وفي خطبة أخرى يعلن بشكل صريح صداقته لأحد الرقباء أنها قائمة على تبادل المنافع:

Nam mihi cum viris fortibus qui censores proxime fuerunt ambobus est amicitia; cum altero vero, sicuti plerique vestrum sciunt, magnus usus et summa utriusque officiis constituta necessitudo est. (Pro Cluentio 117)

"فإنني تربطني صداقة بكل من الرجلين الشجاعين الذين شغلا منصب الرقابة مؤخرًا، غير أنني مع أحدهما – كما يعلم معظمكم – تربطني به علاقة وثيقة قائمة على تبادل المنافع والخدمات الجليلة بيننا".

وفي عمله "عن الإبداع" يعلن أن من بين أنواع الصداقة ما يقوم على تبادل المنافع:

hic, quia de civilibus causis loquimur, fructus ad amicitiam adiungimus, ut eorum quoque causa petenda videatur, (De Invent. 2, 167)

"ولكن بما أننا نتحدث هنا عن الشؤون المدنية، فإننا نضيف عنصر المنفعة إلى الصداقة، بحيث تبدو وكأنها تُطلب لأجلها أيضًا،"

وفي العمل ذاته يؤكد على هذا الرأي، حيث يقول:

sunt qui propter utilitatem modo petendam putant amicitiam; sunt qui propter se solum; sunt qui propter se et utilitatem. (De Invent. 2, 167)

"هناك مَن يعتقدون أن الصداقة تُطلب فقط للمنفعة؛ ومَن يعتقدون أنها تُطلب لذاتها فحسب؛ ومَن يجمعون بين الأمرين".

والرأي نفسه في مؤلفه "عن حدود الخير والشر"، حيث يقول:

Utilitatis causa amicitia est quaesita. (De Fin. 2, 84)

"الصداقة مطلوبة من أجل المنفعة"

وفي فقرة أخرى من "عن الإبداع" يعدد الكثير من العوامل التي تقوم على أساسها الصداقات بين الناس، ومن بينها صداقة المنفعة:

amicitiarum autem ratio, quoniam partim sunt religionibus iunctae, partim non sunt, et quia partim veteres sunt, partim novae, partim ab illorum, partim ab nostro

beneficio profectae, partim utiliores, partim minus utiles, ex causarum dignitatibus, extemporum opportunitatibus, ex officiis, ex religionibus, ex vetustatibus habebitur. (De Invent. 2, 168)

"أما معيار الصداقات، فبما أن بعضها مرتبط بالديانات وبعضها غير مرتبط، وبعضها قديم وبعضها حديث، وبعضها نابع من معروفهم وبعضها من معروفنا، وبعضها أكثر نفعًا وبعضها أقل نفعًا – فإنه يُحدد بناءً على قيمة الأسباب، وملاءمة الأوقات، والواجبات، والديانات، والقِدَم".

ويعرب شيشرون عن أسفه على من يهجرون أصدقائهم بعد انتهاء مصلحتهم لديهم:

Qui etiam deserendus et abiciendus est, desperatis emolumentis et fructibus; quo quid potest dici immanius? (De Leg. 1, 49)

"بل يجب هجر الصديق والتخلي عنه عندما تتبدد المنافع والثمار، فهل هناك ما هو أكثر وحشية من هذا؟"

وفي فقرة أخرى يقول:

Manebit ergo amicitia tam diu, quam diu sequetur utilitas, et, si utilitas amicitiam constituet, tollet eadem. (De Fin. 2, 78)

"إذن، ستدوم الصداقة طالما تبعتها المنفعة، وإذا كانت المنفعة هي ما تُؤسس الصداقة، فإنها نفسها ستزيلها."

ومن العمل ذاته يقول:

sed quid ages tandem, si utilitas ab amicitia, ut fit saepe, defecerit? (De Fin. 2, 79)

"ولكن ماذا ستفعل أخيرًا، إذا غابت المنفعة عن الصداقة، كما يحدث غالبًا؟"

وفي عمله "عن طبيعة الآلهة" يرى أن الصداقة لابد أن تراعي مصلحة الصديقين:

quam si ad fructum nostrum referemus, non ad illius commoda quem diligemus, non erit ista amicitia sed mercatura quaedam utilitatum suarum. (DND 1, 122)

" فإن حوّلنا هذه الصداقة إلى وسيلة لتحقيق منفعتنا الشخصية، بدلًا من أن نضع مصلحة من نحبّ نصب أعيننا، فلن تكون صداقة حقيقية، بل مجرد صفقة تجارية لمصالح أنانية".

خصص شيشرون في عمله "عن غايات الخير والشر" الكثير من الفقرات تناول فيها مفهوم الصداقة، وقد تحدث في أكثر من مرة آراء أبيقور عن الصداقة وأن الغرض منها تحقيق المتعة:

de qua Epicurus quidem ita dicit, omnium rerum, quas ad beate vivendum sapientia comparaverit, nihil esse maius amicitia, nihil uberius, nihil iucundius. (De Fin.1, 65)

"أما أبيقور فيقول عنها: بين كل الأشياء التي تجمعها الحكمة للسعادة، لا شيء أعظم من الصداقة، ولا شيء أكثر خصوبة، ولا شيء أكثر متعة".

وعن الصداقة عند أبيقور يقول أيضًا:

e quibus unum mihi videbar ab ipso Epicuro dictum cognoscere, amicitiam a voluptate non posse divelli ob eamque rem colendam esse, (De Fin. 2, 82)

"من هذه (الأقوال) بدا لي أنني تعرفت على قول واحد من أبيقور نفسه، وهو أن الصداقة لا يمكن فصلها عن اللذة، ولهذا السبب يجب رعايتها،".

كما رأينا في مناقشة المرحلة الأولى من الصداقة، يعتقد لايليوس أن التشابه، وخاصة تشابه الفضيلة الأخلاقية، هو ما يجذب الرجال الصالحين معًا بشكل طبيعي؛ وفي الواقع، يبذل لايليوس جهودًا كبيرة لتوضيح هذه النقطة، وغالبًا ما يلجأ إلى جدل عنيف ضد أولئك الفلاسفة – وخاصة الإبيقوريين – الذين يعتقدون أن الصداقة تبدأ بالمنفعة. لكن لايليوس يحتج كثيرًا: لا يمكنه أن ينكر أن الاختلاف أو التكامل، أي ما يقدمه شخص لآخر، يلعب دورًا مهمًا في الصداقة أيضًا. فهو يسمح، في الواقع، بأن التبادل النفعي المتبادل قد يكون "مناسبًا" أو "مميزًا" للصداقة، لأن الأصدقاء غالبًا ما يُنظر إليهم على أنهم يقدمون ويتلقون المعروف.

لكن الصداقة لا تنشأ بأي حال من الأحوال من أجل المنفعة أو الحاجة فقط، فبالنسبة للايليوس، فإن المزايا المادية المتبادلة بين الأصدقاء ثانوية للمودة التي تنشأ من خلالهما الصداقة في الأصل. ورغم اعتقاد شيشرون بأن الصداقات الحقيقية تنشأ عن تبادل صادق للمشاعر، فإنه أقر

أيضًا بأنه بمجرد تأسيس الصداقة، فإن على الأصدقاء مساعدة بعضهم البعض بكل طريقة ممكنة، بل إن هذا متوقع منهم. لكن يجب أن ينشأ أولاً شعور متبادل بالمودة.

وفيما يتعلق بالنموذج العملي، فإن مسألة تبادل المنافع بين الأصدقاء بسيطة تمامًا: فهي تسمح للصداقة بالازدهار. وهكذا، يقول لايليوس، لم تكن صداقته مع سكيبيو لتتطور أبدًا لو لم يكن سكيبيو بحاجة إلى نصيحته ومساعدته (الفقرة ٥١). وطبيعة هذا التبادل "حقيقية وطوعية" (verum et voluntarium)، فالأصدقاء الحقيقيين يعطون بعفوية وحماس (الفقرة ٤٤).

وفي النهاية، يناقش لايليوس، مع تطور الصداقة، لا ينشأ مجرد تبادل بسيط للمعروف بل منافسة شريفة فعلية (honesta certatio: 32) بين الأصدقاء للتفوق على بعضهم البعض في تقديم المعروف من جهة، وفي عدم السعي إلى المكافأة من جهة أخرى. والنتيجة هي أداء متبادل ذاتي التعزيز والاستمرار للمعروف والالتزامات المتبادلة بين الأصدقاء. وقد قضى لايليوس على ما يبدو الكثير من الوقت في التفكير في فكرة تبادل الواجبات (officia) بين الأصدقاء.

المرحلة الرابعة: انهيار الصداقة

وبينما يجب أن تُبنى علاقة الأصدقاء على الحب، يعتقد شيشرون أن الصداقة لا يمكن أن تنشأ دون أن يساعد أحد الطرفين أو كليهما الآخر في أوقات الحاجة. وينبغي للأصدقاء تقديم خدمات صغيرة مثل النصيحة أو حتى القروض دون أدنى تردد. لكن هذا لا يعني أن على الصديق تلبية كل رغبات رفيقه. يؤكد شيشرون بشدة أنه لا ينبغي لأحد أن يطلب من صديقه خدمة قد تُعتبر غير شريفة أو ضارة سواء لنفسه أو للوطن، مثل إقامة نظام طغيان. كما لا ينبغي للصديق – إذا طُلب منه ذلك – أن يشعر بأنه ملزم بتنفيذ خدمة غير شريفة، خاصة تلك التي تضر بالوطن.

يأسف لايليوس لأن الناس يميلون إلى قطع الصداقات بسهولة بالغة:

22.85 repente in medio cursu amicitias exorta aliqua offensione disrumpimus.

٢٢. ٨٥. " ثم فجأة في منتصف الطريق نقطع صداقاتنا بسبب بعض الإساءة الطارئة."

وعلى الرغم من أنه لا ينبغي للمرء أن يمل من الأصدقاء (الفقرة ٦٧)، فإن هذا يحدث حتمًا، لأن الاهتمامات والآراء السياسية أو الشخصية تتغير مع تقدم المرء في العمر:

10.33 Laelius*:* Quamquam ille quidem nihil difficilius esse dicebat, quam amicitiam usque ad extremum vitae diem permanere. Nam vel ut non idem expediret, incidere saepe, vel ut de re publica non idem sentiretur; mutari etiam mores hominum saepe dicebat, alias adversis rebus, alias aetate ingravescente.

١٠. ٣٣. لايليوس: " لا شيء أصعب من أن تدوم الصداقة إلى آخر العمر. فكم من مرة لا تتوافق الرغبات، أو تختلف الآراء في شؤون الدولة. بل كثيرًا ما تتبدّل أخلاق الناس: تارةً بسبب الشدائد، وتارةً مع تقدّم العمر."

وبالطبع، بين النخبة الرومانية، يمكن للمنافسة – خاصة على المناصب العامة – أو السعي وراء الثروة أن يمزق بسهولة الصداقات القديمة، ويشير لايليوس بالفعل إلى أنه في بعض الأحيان عندما يصبح الرجل ناجحًا فإنه يتخلى عن أصدقائه القدامى لأن شخصيته تتغير:

15.54 Atque hoc quidem videre licet, eos qui antea commodis fuerint moribus, imperio, potestate, prosperis rebus immutari, sperni ab iis veteres amicitias, indulgeri novis.

١٥. ٥٤. " وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح: أن أولئك الذين كانت أخلاقهم معتدلة سابقًا، عندما يصلون إلى السلطة والمناصب والنجاح، يتغيرون، فيزدرون صداقاتهم القديمة ويُفرطون في الصداقات الجديدة."

وتشير كل هذه الأدلة إلى أن انهيار الصداقة بالنسبة للايليوس هو في الأساس قضية أخلاقية؛ حيث يقول إنه لمن الخطأ أن يطلب صديق من صديقه فعل شيء غير مشروع:

10.35 Magna etiam discidia et plerumque iusta nasci, cum aliquid ab amicis quod rectum non esset postularetur, ...

١٠. ٣٥. " تنشأ أيضًا خلافات عظيمة، وكثيرًا ما تكون مشروعة، حين يُطلب من الصديق ما لا يليق، ..."

وطلب أي شيء غير شريف من الصديق يجب أن يُقابل بالرفض وهو ما يهدد بانهيار هذه الصداقة:

10.35 quod qui recusarent, quamvis honeste id facerent, ius tamen amicitiae deserere arguerentur ab iis quibus obsequi nollent. Illos autem qui quidvis ab amico auderent postulare, postulatione ipsa profiteri omnia se amici causa esse facturos. Eorum querella inveterata non modo familiaritates exstingui solere sed odia etiam gigni sempiterna.

١٠. ٣٥. " فإن رفض، وإن فعل ذلك بشرف، يُتَّهم من قِبَل من رفض طاعتهم بأنه تخلّى عن حقّ الصداقة. أمّا أولئك الذين يجرؤون على طلب أي شيء من صديقهم، فإنهم بطلبهم ذاته، يُعلنون استعدادهم لفعل كل شيء من أجله. وشكاوى من هذا النوع، حين تتكرّر وتطول، لا تؤدي فقط إلى إطفاء جذوة المودّة، بل تولّد كراهياتٍ أبدية."

وقد قال شيشرون نفس الفكرة في عمله اللاحق "عن الواجبات":

[43] Maxime autem perturbantur officia in amicitiis, quibus et non tribuere, quod recte possis et tribuere quod non sit aequum, contra officium est. Sed huius generis totius breve et non difficile praeceptum est. Quae enim videntur utilia, honores, divitiae, voluptates, cetera generis eiusdem, haec amicitiae numquam anteponenda sunt. At neque contra rem publicam neque contra ius iurandum ac fidem amici causa vir bonus faciet, ne si iudex quidem erit de ipso amico; ponit enim personam amici, cum induit iudicis. Tantum dabit amicitiae, ut veram amici causam esse malit, ut orandae litis tempus, quoad per leges liceat, accomodet. (De Off. 3.43)

"ولكن أكثر ما يُربك الواجبات في الصداقات هو أنه من الواجب أن تقدم لصديقك ما تستطيعه بحق، ومن الواجب أيضًا ألا تقدم له ما هو غير عادل. وهذا المبدأ كله له قاعدة موجزة وسهلة: فالأمور التي تبدو مفيدة — كالشرف، والثروات، والملذات، وغيرها من نفس النوع— لا ينبغي أبدًا أن تكون مقدمة على الصداقة.

والرجل الفاضل لن يفعل أي شيء ضد الدولة، ولا ضد يمينه أو عهده من أجل صديقه، حتى لو كان قاضيًا في قضية تخصه؛ لأنه يتخلى عن دور الصديق عندما يتبوأ منصب القاضي. كل ما

يمكن أن يقدمه للصداقة هو أن يتمنى أن تكون قضية صديقه عادلة، وأن يُهيئ له الوقت للمرافعة قدر ما تسمح به القوانين".

ويحدد شيشرون أهم الأشياء التي تؤدي إلى فصم عرى الصداقة:

10.34 Sin autem ad adulescentiam perduxissent, dirimi tamen interdum contentione vel uxoriae condicionis vel commodi alicuius, quod idem adipisci uterque non posset. Quod si qui longius in amicitia provecti essent, tamen saepe labefactari, si in honoris contentionem incidissent; pestem enim nullam maiorem esse amicitiis quam in plerisque pecuniae cupiditatem, in optimis quibusque honoris certamen et gloriae; ex quo inimicitias maximas saepe inter amicissimos exstitisse.

١٠. ٣٤. "ولكن حتى لو أن الصداقة امتدت إلى سنّ الشباب، فإنها قد تنفصم عراها أحيانًا بسبب خلاف على زواج، أو على مصلحةٍ ما، لا يمكن لكليهما أن ينالها. لكن إن بلغا مرحلةً أبعد من ذلك في صداقتهما، فغالبًا ما تتصدع أركانها إذا دخلا في منافسة على منصب. والحق إنه لا يوجد طاعون أشدّ على الصداقة لدى العوام من الرغبة في المال، أما بالنسبة للنبلاء فالتنافس على المنصب الرفيع والمجد. ومن هنا، كثيرًا ما نشأت أعظم العداوات بين من كانوا أشدّ الأصدقاء."

يجيز لايليوس الانفصال كحل لهذا المأزق، لأن شخصية من يطلب شيئًا غير عادل قد تغيرت، وبالتالي فإن أساس الصداقة، أي فضيلتها الأخلاقية، قد اختفى تمامًا (الفقرة ٣٧). وهكذا، لا ينبغي للرجال الصالحين أن يشعروا بالسوء حيال قطع صداقة وصلت إلى مثل هذا المأزق:

12.42 Praecipiendum est igitur bonis ut, si in eius modi amicitias ignari casu aliquo inciderint, ne existiment ita se alligatos ut ab amicis in magna aliqua re publica peccantibus non discedant;

١٢. ٤٢. " لذلك، يجب على الأخيار أن يُحذَّروا، فإذا ما سقطوا عن غير قصد في صداقات من هذا النوع، ألا يظنوا أنهم صاروا ملزمين بأن يتبعوا أصدقاءهم إذا أذنبوا في أمر جلل يتعلق بالدولة."

كانت هناك طريقتان لتحقيق الانفصال – إما ببطء ولطف، دون أي علامة علنية على الاتهام أو العداوة (الطريقة المفضلة لدى لايليوس)، أو فجأة وبعنف من أجل استعادة كرامة الطرف المتضرر (البديل الأكثر شيوعًا وقسوة):

21.76 Tales igitur amicitiae sunt remissione usus eluendae et, ut Catonem dicere audivi, dissuendae magis quam discindendae, nisi quaedam admodum intolerabilis iniuria exarserit, ut neque rectum neque honestum sit nec fieri possit, ut non statim alienatio disiunctioque faciunda sit.

٢١. ٧٦. " لذلك يجب التخلص من مثل هذه الصداقات بالتخفيف من التواصل تدريجيًا، وكما سمعت كاتو يقول، يجب 'حل خيوطها' بدلاً من 'تمزيقها'، إلا إذا اشتعلت إساءة بالغة لا تُحتمل، بحيث لا يكون من الصواب ولا الشرف ولا حتى من الممكن إلا إنهاء العلاقة والقطيعة فورًا."

ونفس الرأي نجده في عمله "عن الواجبات":

magis decere censent sapientes sensim diluere quam repente praecidere. (De Off. 1. 120)

" لأن الحكماء يرون أنه من الأليق أن تُذَوَّبَ الصداقات التي لم تعد مُرضية أو مقبولة بالتدريج، بدلاً من قطعها فجأة".

ويحذر لايليوس من تحول الصداقة إلى عداوة:

21.78 Quam ob rem primum danda opera est ne qua amicorum discidia fiant; sin tale aliquid evenerit, ut exstinctae potius amicitiae quam oppressae videantur. Cavendum vero ne etiam in graves inimicitias convertant se amicitiae; ex quibus iurgia, maledicta, contumeliae gignuntur. Quae tamen si tolerabiles erunt, ferendae sunt, et hic honos veteri amicitiae tribuendus,...

٢١. ٧٨. " لذلك يجب بذل الجهد أولاً لمنع حدوث أي خلافات بين الأصدقاء؛ ولكن إذا حدث شيء من هذا القبيل، فليبدو انتهاء الصداقة أشبه بانطفاء طبيعي لا كإخماد قسري. ويجب الحذر بشكل خاص من تحول الصداقات إلى عداوات خطيرة، التي تولد منها المشاجرات والشتائم والإهانات. ومع ذلك، إذا كانت هذه الأمور محتملة، فيجب تحملها، ويجب منح هذا التقدير للصداقة القديمة، .."

وفي العالم الروماني الواعي بالمكانة الاجتماعية والسياسية، حيث كان الأفراد حساسين للغاية بشأن شرفهم وهيبتهم الشخصية، وكان النهج الأخير أكثر شيوعًا، وربما يفسر هذا الصراعات العنيفة التي غالبًا ما ابتليت بها الحياة السياسية الرومانية، خاصة قرب نهاية الجمهورية، عندما تحول الأصدقاء في كثير من الأحيان على الفور إلى أعداء.

وقد حذر شيشرون في خطبته "ضد ڤيرّيس" من تحول الأصدقاء إلى أعداء:

si in hominibus eligendis nos spes amicitiae fefellerit, ut vindicemus, missos faciamus, semper ita vivamus ut rationem reddendam nobis arbitremur. (In Verrem 2.2. 28)

"إذا خذلنا أمل الصداقة في اختيار الأشخاص، فبدلاً من أن ننتقم، فلندعهم يرحلون، ولنعِش دائمًا على أساس أننا سنُحاسب على أفعالنا".

وقد عبر شيشرون عن أن الصداقة لا ينبغي أن تدفع الصديق إلى الإضرار بمصالح الوطن:

11.36 Quam ob rem id primum videamus, si placet, quatenus amor in amicitia progredi debeat. Numne, si Coriolanus habuit amicos, ferre contra patriam arma illi cum Coriolano debuerunt?

١١. ٣٦. " فلننظر، إن شئتم، إلى هذه النقطة أولًا: إلى أي مدى يجب أن يمضي الحبّ في الصداقة؟ هل إذا كان لكوريولانوس أصدقاء، كان ينبغي لهم أن يحملوا السلاح معه ضد وطنهم؟"

وأكد على أنه من الأولى خسارة الصديق على خيانة الوطن ويضرب لنا المثل بمن هجروا أصدقائهم من أجل سلامة الوطن، وكذلك من أظهروا أنهم على استعداد الوقوف إلى جانب الصديق حتى لو قاتل ضد وطنه:

11.37 Ti. quidem Gracchum rem publicam vexantem a Q. Tuberone aequalibusque amicis derelictum videbamus. At C. Blossius Cumanus, hospes familiae vestrae, Scaevola, cum ad me, quod aderam Laenati et Rupilio consulibus in consilio, deprecatum venisset, hanc ut sibi ignoscerem, causam adferebat, quod tanti Ti. Gracchum fecisset ut, quidquid ille vellet, sibi faciendum putaret. Tum ego: 'Etiamne, si te in Capitolium faces ferre vellet?' 'Numquam' inquit 'voluisset id quidem; sed si voluisset, paruissem.'

١١. ٣٧. "وقد رأينا تيبريوس جراكوس، وهو يعصف بالجمهورية، قد تخلّى عنه كوينتوس توبيرو وسائر رفاقه من أصدقائه. أما جايوس بلوسيوس من مدينة كوماي، وهو صديق لأسرتك يا سكايڤولا، فقد جاء إليّ ذات مرة، لأنني كنت حاضرًا مع القنصلين لايناس وروبيليوس ضمن مجلسهم الاستشاري، جاء طالبًا العفو عنه، ومعتذرًا بما يلي: "لقد كنت أقدّر تيبريوس جراكوس تقديرًا عظيمًا، حتى إنني كنت أرى أنه يجب عليَّ أن أفعل له ما يشاء، مهما كان". فقلت له: "حتى لو طلب منك أن تحمل مشاعل لإحراق الكابيتول؟" فأجاب: "لم يكن ليطلب مني ذلك قط؛ ولكن، لو شاء، لأطعتُه"."

ويأكد من خلال بعض الشخصيات التاريخية أن لا أحد منهم يمكنه أن يخون الوطن من أجل صديقه:

11.39 Igitur ne suspicari quidem possumus quemquam horum ab amico quippiam contendisse, quod contra fidem, contra ius iurandum, contra rem publicam esset.

١١. ٣٩. " لذلك لا يمكننا حتى أن نشكّ في أن أحدًا من هؤلاء قد طلب من صديق شيئًا يخالف الأمانة أو القسم أو مصلحة الدولة."

ولهذا يسن شيشرون القانون التالي:

12.40 Haec igitur lex in amicitia sanciatur, ut neque rogemus res turpes nec faciamus rogati. Turpis enim excusatio est et minime accipienda cum in ceteris peccatis, tum si quis contra rem publicam se amici causa fecisse fateatur.

١٢. ٤٠. " فلْيُسنّ إذن هذا القانون في الصداقة: ألا نطلب من الأصدقاء ما هو شائن، وألا نفعله إن طُلب منا. فإن الاعتذار عن ارتكاب فعل قبيح، هو اعتذار مشين، ولا ينبغي قبوله لا في سائر الذنوب، ولا سيّما إذا اعترف المرء بأنه فعل أمرًا يخالف مصلحة الدولة من أجل صديقه."

ويطلق هذا التحذير:

12.42 Praecipiendum est igitur bonis ut, si in eius modi amicitias ignari casu aliquo inciderint, ne existiment ita se alligatos ut ab amicis in magna aliqua re publica peccantibus non discedant;

١٢. ٤٢. " لذلك، يجب على الأخيار أن يُحذَّروا، فإذا ما سقطوا عن غير قصد في صداقات من هذا النوع، ألا يظنوا أنهم صاروا ملزمين بأن يتبعوا أصدقاءهم إذا أذنبوا في أمر جلل يتعلق بالدولة.

13. 44 Haec igitur prima lex amicitiae sanciatur, ut ab amicis honesta petamus, amicorum causa honesta faciamus,

١٣. ٤٣. " بناء على ذلك فلنُثبّت إذن هذا المبدأ الأول من مبادئ الصداقة: أن نطلب من الأصدقاء ما هو شريف فقط، وأن نفعل للأصدقاء ما هو شريف فقط،"

وهذا المعنى كرره شيشرون في "عن الواجبات":

Cum autem in amicitia, quae honesta non sunt, postulabuntur, religio et fides anteponatur amicitiae; sic habebitur is, quem exquirimus dilectus officii. (De Off. 3. 46)

"ولكن عندما يُطلب في الصداقة أمور ليست نبيلة، فليُقدَّم الواجب والأمانة على الصداقة؛ وهكذا سيُعتبر هذا الذي نبحث عنه اختيارًا للواجب".

ولذلك يطالب شيشرون بمحاكمة من يقفون مع أصدقائهم ضد أوطانهم:

12.43 Quare talis improborum consensio non modo excusatione amicitiae tegenda non est sed potius supplicio omni vindicanda est, ut ne quis concessum putet amicum vel bellum patriae inferentem sequi;

١٢. ٤٣. " لذلك، فمثل هذا التواطؤ بين الأشرار لا ينبغي أن يُغطّى بذريعة الصداقة، بل يجب أن يُعاقَب عليه بأشد العقوبات، حتى لا يظن أحد أنه مباح له أن يتبع صديقًا يرفع السلاح في وجه الوطن."

وتظهر كلمات شيشرون بشكل عملي في خطبته "دفاعًا عن رابيروس" حيث يقول:

induxerit eum L. Saturnini familiaritas ut amicitiam patriae praeponeret; idcircone oportuit C. Rabirium desciscere a re publica, non comparere in illa armata multitudine bonorum, consulum voci atque imperio non oboedire? (Pro Rabirio 23)

"حتى لو أقنعته صداقته مع لوكيوس ساتورنينوس أن يقدّم تلك الصداقة على وطنه؛ أفكان ينبغي لجايوس رابيريوس بسبب ذلك أن ينشق عن الجمهورية، ألا يظهر بين ذلك الحشد المسلح من الأخيار، ألا يخضع لنداء القناصل وأمرهم؟"

ويعلل شيشرون دفاعه عن مورينا بأنه دفاع عن الوطن:

Ego quod facio, iudices, cum amicitiae dignitatisque L. Murenae gratia facio, tum me pacis, oti, concordiae, libertatis, salutis, vitae denique omnium nostrum causa facere clamo atque testor. (Pro Murena 78)

"أما أنا، أيها القضاة، فإني إذ أفعل ما أفعله بدافع صداقتي وتقديري للوكيوس مورينا، فإنني أصيح وأشهد أنني أفعله أيضًا من أجل السلام، والراحة، والوئام، والحرية، والسلامة، وحياة الجميع منا في نهاية المطاف".

البعد السياسي للصداقة عند شيشرون:

وخلافًا للفلاسفة اليونانيين الذين ناقشوا الصداقة ضمن إطار أخلاقي أو خاص، يرى شيشرون أن الصداقة تلعب دورًا جوهريًا في بناء الجمهورية، فهي وسيلة لضمان الاستقرار والتعاون بين المواطنين الفضلاء.

كتَب شيشرون محاورة "لايليوس عن الصداقة" عام ٤٤ قبل الميلاد خلال الفترة التي أعقبت اغتيال يوليوس قيصر، وهي مرحلة شهدت اضطرابات سياسية كبيرة. ورغم أن العمل يركز على شخصيات تاريخية مثل لايليوس وسكيبيو أيميليانوس ومحيطهما، فإن موضوعاته المتعلقة بالولاء والخيانة وأخلاقيات التحالفات السياسية تعكس بشكل واضح الأوضاع السياسية التي عاصرها شيشرون نفسه.

وفي تلك الفترة ذاتها، كان شيشرون يعمل على كتابة مؤلفات أخرى تحمل طابعًا سياسيًا واضحًا مثل "عن الواجبات" و"الفيليبيات" أي خطبه ضد أنطونيوس، التي تناولت بشكل صريح قضايا الواجب الأخلاقي والمدني في ظل النظام الجمهوري المنهار. ومن المحتمل أن تكون محاورة "لايليوس عن الصداقة" جزءًا من هذا المشروع الفكري الأوسع، حيث يستحضر نموذج الصداقات المثالية في الماضي لينتقد من خلاله الممارسات السياسية المعاصرة، لاسيما تلك المتعلقة بتقلبات مواقف شخصيات سياسية مثل ماركوس أنطونيوس.

يناقش الحوار بشكل خاص مخاطر الصداقات القائمة على المصالح الشخصية، وهي ظاهرة كانت شائعة في الحياة السياسية الرومانية حيث تحولت كلمة (amicitia) من دلالتها على العلاقات الشخصية إلى مصطلح يشير إلى التحالفات السياسية المؤقتة. ويمكن فهم هذا النقاش على أنه نقد ضمني لسياسات يوليوس قيصر الشعبوية والممارسات الانتهازية لخلفائه.

أما فيما يخص موقف الدارسين من هذا العمل، فهناك اتجاهان رئيسيان: الأول يعتبر الكتاب مجرد مقالة أخلاقية عامة تبتعد عن أية إشارات إلى الأحداث المعاصرة. بينما الاتجاه الآخر يرى أن شيشرون، ببراعته المعروفة في استخدام التلميحات البلاغية، قد دسّ انتقاداته للواقع السياسي في عصره ضمن هذا الحوار الفلسفي.

والحق فإن بعض الدارسين رأوا أنه من المحتمل وجود إشارات سياسية في العمل. فخلف شخصيات مثل كوريولانوس وتيبيريوس جراكوس، يمكننا أن نكتشف إشارات إلى أنطونيوس وقيصر. وقد يذهب المرء إلى حد تفسير المقال بأكمله على أنه كُتِبَ ليدعو الرومان إلى الابتعاد عن التحالفات المؤقتة التي تهدف إلى التوسع الشخصي (مثل حكومات الائتلاف الثلاثي)، والتوجه بدلاً من ذلك نحو صداقات دائمة تقوم على الفضيلة والولاء للدولة ولبعضهم البعض. فالمحاورة كُتبت لتتناسب مع الظروف الخاصة للعصر والدولة التي كُتِبَت فيها.

على الرغم من عدم تورط شيشرون في مؤامرة اغتيال قيصر، فإن السياسي المخضرم قد برر الفعل كاملاً، متخيلاً – مثل المتآمرين – أن إزالة الديكتاتور ستعني استعادة الحرية تلقائيًا. ولكن السنين المرعبة من الحرب والتصفيات التي تلت تلك الأحداث، كانت كفيلة بإثبات مدى خطأه وخطأهم. كانت هذه الفترة التي لم تزد عن عامين بعد مقتل قيصر الأكثر إشراقًا في مسيرة شيشرون، فبهمة لا تعرف الكلل ونزاهة خالية من الأنانية، انغمس الرجل في مهمة إنقاذ وطنه. خطبه في مجلس الشيوخ والسوق العامة، ورسائله الكثيرة ومناشداته للعيد من الشخصيات لدعم الحزب الجمهوري، وكلماته المشجعة ونصائحه للأقوياء والضعفاء على السواء – كل هذه الجهود التي توجتها سلسلة الخطب الأربعة عشرة ضد أنطونيوس، التي لم تعرف لها روما مثيلاً في قوة الخطابة وحدة الهجاء، تشهد جميعها على صدق دوافعه.

رغم كل جهوده البطولية، أخفق شيشرون في إدراك حقيقة أن المؤسسات التي ناضل من أجلها في وطنه قد فقدت روحها وحياتها، وأن عصرًا جديدًا كان لابد أن يحل محل النظام القديم. توالت

الأحداث بسرعة مذهلة، فتهاوت خططه الواحدة تلو الأخرى، وخانته صداقات كان يأمل فيها، وانتصر خصومه الذين طالما حاربهم، حتى اجتمعت قوى أوكتافيانوس وأنطونيوس وليبيدوس لتشكل الحكومة الثلاثية الثانية.

لقد كانت خطبته الهجومية الشهيرة أي "الفيليبية الثانية" بمثابة توقيعه على حكم إعدامه بيديه. لذا لم يكن مفاجئًا أن يحتل اسمه الصدارة في قائمة الموت التي أصدرها المنتصرون. حاول شيشرون الهروب مرتين، ففي الأولى أبحر بعيدًا عن شواطئ إيطاليا ثم ما لبث أن عاد، وفي المحاولة الثانية – وهي الأخيرة – عاد إلى وطنه ليقول كلمته الخالدة: "دعوني أموت في الأرض التي أنقذتها مرارًا." لقد مثّل مصير شيشرون المأساوي النهاية المفجعة لعصر كامل، حين سقط آخر المدافعين عن الجمهورية الرومانية تحت ضربات نظام جديد لم يكن بمقدوره فهمه أو تقبله.

كانت "الصداقة السياسية" وثيقة الصلة بمفهومي "التكتل (factio) "و"العداوة (inimicitia) "، كما كان من الطبيعي أن يكتسب رجل الدولة العديد من الأعداء في سعيه للمنصب والنفوذ؛ وفي هذا السياق، كان السياسي يتوقع من أصدقائه تقديم الدعم في الانتخابات والوقوف إلى جانبه في مواجهة المخاطر التي تنجم عن عداواته الشخصية والسياسية. ولم يكن دعم أقرانه من الطبقة الأرستقراطية كافيًا، مما جعل شعبية السياسي بين عامة الشعب وخاصة الفرسان أمرًا بالغ الأهمية.

إن إدراك الدلالات السياسية لمصطلح "الصداقة (amicitia) "يقود حتمًا إلى توقع بعض النتائج فيما يتعلق بمحاورة "لايليوس عن الصداقة": أولاً، أنه لا بد أن يعكس الخلاف بين شيشرون وأنطونيوس؛ ثانيًا، أنه قد يكشف عن بعض مظاهر التوتر في علاقة شيشرون بأتيكوس حول بعض القضايا خلال عام ٤٤ قبل الميلاد. وهذه النتائج المتوقعة تنبع من الطبيعة السياسية لمفهوم الصداقة في ذلك العصر، حيث كانت العلاقات الشخصية تشكل نسيج الحياة السياسية الرومانية. فالمحاورة – بحسب هذا التحليل – ليست مجرد بحث فلسفي في الصداقة المثالية، وإنما مرآة تعكس الصراعات السياسية التي عاشها المؤلف في تلك الفترة الحرجة من تاريخ روما.

كان الروماني يحتفظ بسجل دقيق لأصدقائه، وفي هذا الصدد لم يكن شيشرون استثناءً. إلا أن مفهوم الصداقة (amicitia) اكتسب أهمية أكبر في حياة شيشرون عام ٤٤ ق.م. مقارنة بأي فترة أخرى. بناءً على الرسائل المتبادلة مع شيشرون بعد اغتيال قيصر، يمكن إدراج الأسماء التالية –

بدرجات متفاوتة – في قائمة أصدقائه من الشباب والشيوخ: المواطنون العاديون مثل أتيكوس وماتيوس وبايتوس؛ والقناصل أنطونيوس ودولابيلا وهيرتيوس وبانسا؛ ومن قتلة قيصر: ماركوس بروتوس وكاسيوس وديكيموس بروتوس؛ وأخيرًا أوكتافيوس الابن بالتبني ووريث قيصر. بالتأكيد احتل أتيكوس قمة هرم أصدقاء شيشرون. أما ماتيوس، وإن لم يكن الأقرب، فبحسب اعتراف شيشرون نفسه كان من أقدم أصدقائه[1]. على العكس من ذلك، أنطونيوس، الذي ظل على علاقة ودية مع شيشرون لفترة ما بعد مقتل قيصر، أصبح لاحقًا ألد أعدائه. هؤلاء الثلاثة يمثلون الجوانب الرئيسية لإشكالية الصداقة التي اضطر شيشرون لمواجهتها في الواقع، والتي عالجها في محاورة "لايليوس عن الصداقة."

تتمثل مشكلة الصداقة (amicitia) فيما يتعلق بشيشرون وماتيوس في رسالتين: الأولى كتبها الخطيب إلى صديقه، والثانية هي رد ماتيوس. في رسالته، يعبر شيشرون عن شكواه من ماتيوس لتوليه مسؤولية الألعاب التي أقامها أوكتافيوس تكريمًا لقيصر المتوفى. ونفهم من ذلك أن ماتيوس كان يجب صديقه ويفضله على حرية وطنه. وهذه المسألة المتعلقة بمدى ما يجب أن تصل إليه المحبة في إطار الصداقة، وقد ناقشها شيشرون بتفصيل كبير في محاورته "لايليوس عن الصداقة".

وحيث إن شيشرون ألف كتابه "عن الصداقة" في خريف عام ٤٤ ق.م، وأنه –كعادته– عكس فيه الأوضاع السياسية السائدة آنذاك، سأحاول تسليط الضوء على الإشارات السياسية في العمل:

يبدأ شيشرون محاورة "لايليوس عن الصداقة" بسرد علاقته بعائلة سكايڤولا، ثم يشرح أن الخلاف بين الصديقين السابقين – بوبليوس روبليوس روفوس وكوينتوس بومبيوس – هو ما دفع سكايڤولا العرّاف إلى رواية حديث دار بين لايليوس وصهرَيه عن الصداقة. يمكن بسهولة رؤية تشابه صارخ في الإشارة إلى قطع الصداقة بين الرجلين والخلاف بين شيشرون وأنطونيوس.

علاوة على ذلك، عندما يؤكد شيشرون على قيام سكايڤولا برواية حديث لايليوس عن الصداقة أثناء انقطاع سابق للصداقة، فمن المحتمل أنه كان يريد من قرائه أن يلاحظوا تشابهًا لافتًا مع مناقشته. من هذه النقطة حتى الفصل الخامس، لا يوجد ما هو ذو صلة مباشرة بالموضوع

---

[1] Ad Fam. 11.27.2

المطروح. يوضح المؤلف هنا دوافعه لكتابة هذا العمل عن الصداقة، ويقدم خلفية الأحداث والشخصيات.

يتناول الفصلان السادس والسابع موضوع "الحكيم" وتطبيق هذا اللقب على لايليوس، مما يطرح مسألة (في الفصلين ٧ و٨) تتعلق بتغيّبه عن اجتماع الكهنة. قد يعكس سلوك لايليوس هذا انسحاب شيشرون المؤقت من الحياة العامة بعد وفاة ابنته توليا، بينما قد تشير حجة لايليوس بمرضه إلى عذر شيشرون لتغيّبه عن مجلس الشيوخ في الأول من سبتمبر.

يضع لايليوس شرطه الأول عن الصداقة، ويقول:

5.18 “Sed hoc primum sentio, nisi in bonis amicitiam esse non posse;”

٥. ١٨. " لكن، بادئ ذي بدء فإنني أشعر بهذا الأمر: أن الصداقة لا يمكن أن توجد إلا بين الأخيار؛"

هذه النظرية التي تقضي بأن الصداقة لا تكون إلا بين الأخيار، كانت لتحول دون أي تعاطف مع أنطونيوس – الذي كان نمط حياته مناقضًا تمامًا لنهج شيشرون. عند تحليل تعريف شيشرون لمصطلح "الأخيار" (viri boni) ، يمكن للمرء أن يلاحظ وجود عدة أوجه تشابه لفظية مع خطبه الفيليبية، أو على الأقل مصطلحات متكافئة في المضمون مع المقاطع الواردة فيها. يقول شيشرون أن الأخيار يتسمون بالأمانة والاستقامة، والعدل والكرم، ولا تسيرهم الأهواء ولا تحكمهم النزوات أو الغطرسة (١٩). فإذا كان يجب قياس أنطونيوس بمثل هذه المعايير الموضحة هنا، فلا شك أنه يفتقر بشكل مؤسف لأن يكون رجلاً صالحًا. فهو لا يتسم بالإخلاص (fides) ، ولا يتسم بأي سمات الأخيار، والفقرات التالية من الفيليبية الثانية توضح رؤية شيشرون لأخلاق أنطونيوس:

Inde iter Alexandream contra senatus auctoritatem, contra rem publicam et religiones; (Philip. 2.48.5)

" من هناك، انطلق نحو الإسكندرية، متحديًا سلطة مجلس الشيوخ، ومتجاوزًا مصالح الدولة وتقاليدها الدينية."

Accipite nunc, quaeso, non ea quae ipse in se atque in domesticum decus impure et intemperanter, sed quae in nos fortunasque nostras, id est in universam rem publicam, i mpie ac nefarie fecerit. (Philip. 2.50.10)

" استمعوا الآن، أرجوكم، ليس إلى أفعاله التي ارتكبها بفجورٍ وطيشٍ ضد نفسه وشرفه الشخصي، بل إلى ما اقترفه ضدنا وضد مقدراتنا، أي ضد الكيان العام للدولة، بأسلوبٍ دنيءٍ ومخالفٍ للدين والقانون."

quid autem agebatur nisi ne deleri et everti rem publicam funditus velles,(Philip. 2.52.5)

" ولكن ما كان يجري إلا محاولة لمنعك من تدمير الدولة والقضاء عليها من جذورها."

Ut Helena Troianis, sic iste huic rei publicae belli causa, causa pestis atque exiti fuit. (Philip. 2.55.10)

" كما كانت هيلينا سبب حرب الطرواديين، كان هذا الرجل (أنطونيوس) سبب الحرب والوباء والدمار لهذه الجمهورية."

قيصر ومحاورة " لايليوس عن الصداقة"

يبدو أن محاورة " لايليوس عن الصداقة" كانت بمثابة شكل من أشكال العلاج لشيشرون، حيث سعى من خلالها إلى شرح مشاعره تجاه موت يوليوس قيصر. وأن الجوانب السلبية للصداقة السياسية مع قيصر كانت تثقل كاهل شيشرون بعد الاغتيال.

إن تعريف الصداقة "amicitia" في محاورة " لايليوس عن الصداقة" يتضمن جوانب مثالية للعلاقات الشخصية الحقيقية، مما يقوض فكرة الصداقة السياسية الخالصة من النوع الذي بناه شيشرون مع قيصر. فقد أدت الحرب الأهلية التي أوصلت قيصر إلى السلطة إلى مقتل الآلاف، وكان اغتياله بمثابة فشل ذريع للثقافة السياسية الرومانية. والأدهى من ذلك، أنه مع مقتل قيصر، كانت حرب أهلية أخرى تلوح في الأفق، مما ينذر بخسائر بشرية فادحة أخرى. وقد وضعت هذه الظروف السياسية دور الصداقة السياسية في تحديد مسار الأحداث موضع تساؤل.

والحق إن هناك اختلاف كبير بين شيشرون وقيصر في المكانة الاجتماعية والآراء السياسية، كان شيشرون من طبقة الفرسان وعامة الشعب، بينما كان قيصر من طبقة النبلاء. كان لدى كلتا الطبقتين، الفرسان والسيناتورية، أعضاء أثرياء يتمتعون بنفوذ سياسي. وكان على شيشرون أن يشق طريقه بصعوبة إلى قمة الساحة السياسية لأنه كان يُنظر إليه بازدراء من قبل النخبة

السيناتورية. أما قيصر فكان من طبقة النبلاء، ووفرت خلفيته العائلية فرصًا أكبر لمسيرة سياسية مقارنة بمسيرة شيشرون.

بينما كان بإمكان شيشرون أن يزعم بشكل مقبول أنه صديق لبومبي، فإن ادعاءه بالصداقة مع قيصر في خطبته "عن الولايات القنصلية" (De Provinciis Consularibus) كان يثير الشك. ففي نقاش دار في منتصف عام ٥٦ قبل الميلاد حول أي المقاطعات يجب إعادة تعيينها لقناصل تلك السنة وأيها يجب أن تبقى في أيدي حكامها الحاليين، قدم شيشرون حجة مفاجئة، مثّلت انحرافًا عن مواقفه السياسية السابقة: وهي أنه يجب تمديد قيادة قيصر في بلاد الغال. ولإضفاء الشرعية على حججه، زعم أن ثناءه ودعمه لقيصر كان قائمًا على صداقة طويلة الأمد، على الرغم من خلافاتهما السياسية. يشرح شيشرون بعد ذلك أن خلافاته مع قيصر في المسائل السياسية لم تشكل في الواقع عداءً (inimicitia) ولم تزعج صداقتهما في المجال الخاص (40-41) . ويُصر على أنه قد جدد الآن صداقته مع قيصر في المجال العام من أجل مصلحة الدولة (وليس من أجل مكاسب مالية). وعزا دفاعه عن قيصر إلى ميله الشخصي للمسامحة والامتنان حتى لأصغر علامة على حسن النية، وأقر بأنه يرغب في اغتنام أي ذريعة للصداقة.

يزعم شيشرون أيضًا أنه حتى لو لم تكن هناك رابطة صداقة شخصية بينه وبين قيصر، فإن قيادة قيصر كانت في صالح الجمهورية، وهذه الحقيقة البسيطة تتطلب من شيشرون أن يعامله كصديق. وقد قدم هذه الحجة في خطبته هذه (٣٥)، وبشكل أكثر قوة في العام التالي في خطبته "ضد بيسو" (In Pisonem)، حيث لجأ مرة أخرى إلى المحسنات البلاغية لإثبات وجهة نظره:

Equidem dicam ex animo, patres conscripti, quod sentio, et quod vobis audientibus saepe iam dixi. Si mihi numquam amicus C. Caesar fuisset, si semper iratus, si semper aspernaretur amicitiam meam seque mihi implacabilem inexpiabilemque praeberet, tamen ei, cum tantas res gessisset gereretque cotidie, non amicus esse non possem; cuius ego imperium, non Alpium vallum contra ascensum transgressionemque Gallorum, non Rheni fossam gurgitibus illis redundantem Germanorum immanissimis gentibus obicio et oppono; perfecit ille ut, si montes resedissent, amnes exaruissent, non naturae praesidio sed victoria sua rebusque gestis Italiam munitam haberemus.
(In Pis. 81-82)

"ومع ذلك، سأتحدث من قلبي، أيها الأعضاء في مجلس الشيوخ، عما أشعر به، وما قلته على مسامعكم مرات عديدة الآن. لو لم يكن قيصر صديقي، ولو كان غاضبًا مني دائمًا، ولو كان

يحتقر صداقتي ويظهر نفسه كشخص غير مرن ولا يمكن تهدئته بالنسبة لي، لما كنت سأستطيع مقاومة أن أكون صديقًا له، لأنه قد فعل وما زال يفعل مثل هذه الأشياء العظيمة. إنها قيادته، وليست جبال الألب التي أشير إليها وأجعلها حاجزًا ضد صعود أو عبور سكان الغال، ولا أعماق نهر الراين، الذي يفيض على منحدراته، ضد قبائل الألمان الوحشية؛ فقيصر قد فعل ذلك بحيث إذا غرقت الجبال في الأرض وجفت الأنهار، فلن تكون لدينا دفاعات الطبيعة بل انتصار قيصر وإنجازاته لتحصين إيطاليا."

في بداية المقطع، يوجه انتباه جمهوره لتصريحاته حول صداقته مع قيصر مما يظهر أنه لا يزال في موقف دفاعي بخصوص تلك الصداقة. ثم يعد بأنه "سيتحدث من قلبه" كما لو أن خوفًا غير معلن يهدد بمنعه من التحدث بحرية. ربما كان بعض أعضاء الجمهور قد أرهفوا آذانهم، آملين في سماع إدانة للطاغية، ليصابوا بخيبة أمل من تلاعب شيشرون بالافتراضات المخالفة للواقع. وهكذا رأى خصوم قيصر أن شيشرون كان براجماتيًا وتظاهر بالصداقة مع قيصر. ومع ذلك، يعود مرة أخرى لاستخدام أساليب المديح والاستعارات الفخمة التي تضخم إنجازات هذا الرجل العظيم. ويبدو أن هذه الأساليب تهدف إلى تأكيد مشاعره بالصداقة، ويستخدم الثناء كأداة ضغط، تفرض التزامًا بالمعاملة بالمثل من قبل قيصر.

قبل الحرب الأهلية، قادت جهود شيشرون لإثبات صداقته لقيصر في خطبته هذه إلى مديح هذا الحاكم الطاغية بأسلوب مبالغ فيه يرفعه فوق مستوى الرجال العاديين، وبعد الحرب الأهلية، قام شيشرون بنفس الخطوة في خطبته "دفاعًا عن ماركيلّوس" (Pro Marcello)، وهي أكثر خطبه إفراطًا في المديح. وقد ألقاها في سبتمبر من عام ٤٦ قبل الميلاد، أمام قيصر بصفته ديكتاتورًا، ليشكر قيصر على سماحه لمجلس الشيوخ بمناقشة ما إذا كان ينبغي السماح لأحد أتباع بومبي وهو ماركوس ماركيلّوس بالعودة من المنفى. وكانت نتيجة قرار شيشرون بمدح قيصر بهذا الشكل المبالغ فيه في هذا الخطاب هي أنه بدا لبعض القراء أقرب إلى متملقي الأباطرة في خطب المديح.

يبدو أن شيشرون اعتقد أن أفضل طريقة لجعل قيصر يستعيد الجمهورية لم تكن عبر انتقاد الديكتاتور أو إلقاء المحاضرات عليه حول الأخلاق، بل عبر اتخاذ موقف الصديق والداعم للديكتاتور، الذي لا يريد سوى ضمان نجاح سياساته وبريق سمعته. وبهذه الطريقة، يمارس بمدحه

ضغطًا خفيًا على قيصر لكي يرقى إلى رؤية شيشرون العظيمة له كمُرمم الجمهورية"، ويترك لقيصر نفسه ارتداء دور الصديق – أو الحاكم الرحيم. وقد خصص شيشرون مساحة كبيرة لفكرة المعاملة بالمثل في الصداقة، أي ما يفترض أن يفعله الأصدقاء ويشعروا به تجاه بعضهم البعض. كان شيشرون يتوقع أن يلقى استهجان زملائه في مجلس الشيوخ بسبب دفاعه عن بومبي وقيصر قبل الحرب، ولكن بعد الحرب ربما كان يتوقع أن يصبح هذا الدفاع غير مقبول بشكل متزايد. ومع ذلك، بعد اغتيال قيصر، حاول شيشرون مرة أخرى تطبيق أسلوبه في استخدام المديح كشكل من أشكال الضغط، وفي هذه المرة وجهه إلى قناصل عامي ٤٤ و ٤٣ وإلى أعضاء مجلس الشيوخ الذين خاطبهم في خطبه الفيليبية.

بعد الحرب الأهلية، بدأ شيشرون في إيجاد طرق جديدة لجعل نفوذه محسوسًا لدى الأجيال اللاحقة، واستخدم علاقات الصداقة ليضع نفسه في دور المرشد الودود مع أصحاب السلطة من السياسيين الشباب البارزين من خلال الثناء عليهم. بدأت هذه الصداقات، مع ذلك، كوسيلة لشيشرون لحماية نفسه. فقد اعتقد أن الصداقة مع أفراد يتمتعون بمراكز جيدة مثل هيرتيوس ودولابيلا ستحميه. يبدو أن شيشرون اعتقد أن علاقته بصهره دولابيلا قد آتت أكلها في عام ٤٤ قبل الميلاد، عندما قام دولابيلا، الذي حل محل قيصر المُغتال في منصب القنصلية لعام ٤٤ قبل الميلاد، بإزالة عمود تذكاري لقيصر من السوق العامة. وكتب شيشرون له ليعبر عن مدى فخره بطالبه السابق وسعادته بأن الرأي العام يعتبره شريكًا في انتصاراته، ويشبه نفسه بنستور في مساعدته لأجاممنون في وضع الخطط. في هذه الرسائل، يعامل شيشرون ثناءه كجائزة تُمنح وكحافز لمزيد من المجد، وكأن تلاميذه الشباب سيستمرون في السعي إليها. إن مقارنته المليئة بالإطراء لدولابيلا بأجاممنون تمهد لما تبقى من الرسالة، التي يضغط فيها على دولابيلا للاستمرار في التصرف "لمصلحة الجمهورية"، أي كما يريد شيشرون منه أن يتصرف[1].

من الدلالات المهمة، فيما يتعلق بأنواع الضغط التي يمكن أن يمارسها الصديق، هو أن كلا من شيشرون وأنطونيوس قد زعما حقوقًا على بعضهما البعض على أساس "صداقتهما" قبل أن يهاجم كل منهما الآخر ويصبحا عدوين في سبتمبر من عام ٤٤. من جانبه، كان أنطونيوس يريد

[1] Fam. 9.14.7

بوضوح أن يتمكن من الاعتماد على شيشرون كصديق، ومن هنا جاء طلبه بضرورة حضور شيشرون في مجلس الشيوخ للتصويت على تكريم قيصر قبل الانفصال المشؤوم؛ وغضبه من غياب شيشرون يظهر مدى رغبته الشديدة في الحصول على دعم رجل الدولة المخضرم. وشيشرون، أيضًا، كان يريد أن يكون صديقًا لأنطونيوس، ولكن كأنداد وبشروطه الخاصة، ولذلك استخدم "صداقتهما" كأساس للضغط. في الخطبة الفيليبية الأولى، يصر على أنه صديق وليس عدوًا لأنطونيوس ودولابيلا، الذي أصبح الآن قنصلًا بديلًا. وينصح كلًا منهما بأن يتذكر المجد الأسمى الذي حققه في وقت سابق من العام باتباع قيادة شيشرون، ويعبر عن قلقه بنبرة نذير شؤم من أنهما قد يبتعدان عن مسار مثل هذا المجد الحقيقي بل وقد يواجهان نفس المصير الذي واجهه قيصر (١.٢٩)، ولكنه يخفي هذا التهديد من خلال الحفاظ على دور صريح كمرشد ودود.

إن تعامل شيشرون مع أنطونيوس في الفيليبية الأولى لا يختلف عن تعامله مع قيصر في "دفاعًا عن ماركيلّوس" من بعض الجوانب المهمة. ففي كلتا الحالتين، قام بتغليف الانتقاد في إطار من الرغبة في مساعدة الرجل القوي على النجاح. ويمدح أنطونيوس بغرض إعادة الجمهورية وإلغاء الديكتاتورية (٣-٤)، تمامًا كما كان قد مدح قيصر من أجل استعادة مجلس الشيوخ، وذلك بحجة أنه يربطهما رابط من الامتنان المتبادل ووضع خارطة طريق لاستمرار الصداقة.

النتائج

- كان شيشرون يقف أقرب إلى الرواقيين الذين جعلوا الفضيلة أساس الصداقة.
- وكان يرفض رأي الإبيقوريين الذي يرى أن المنفعة لا تخلق الصداقة الحقيقية.
- ويوافق أرسطو جزئيًا في التمييز بين أنواع من الصداقات، لكنه يرفع من شأن الصداقة الفاضلة باعتبارها وحدها الجديرة باسم الصداقة.
- ويرى أن الصداقة ليست شأنًا خاصًا فحسب، بل قيمة مدنية أساسية في حياة الجمهورية الرومانية.
- إن أفكار شيشرون عن الصداقة متشابكة: ففي النصوص الفلسفية يؤكد على الفضيلة والمثل العليا. وفي النصوص الخطابية والسياسية: يقر بوجود صداقة قائمة على المصلحة، ويتعامل معها ببراجماتية. وهذا التوتر نفسه يجعل فلسفة شيشرون جذابة ومركّبة، فهي تسعى للربط بين المُثل الفلسفية والواقع السياسي.

- ورغم أن المصطلح بشكل عام يعني "الصداقة"، فإن هذه المحاورة ركزت على تعريف "الصداقة الحقيقية" وكيفية تجليها في المجتمع الروماني خلال القرنين الأخيرين. في هذا العمل، عرّف شيشرون أيضًا ما يجب أن تكون عليه "الصداقة الحقيقية" وما لا يجب أن تكون، خاصة في العالم السياسي الروماني المضطرب والمعقد في نهاية عهد الجمهورية.
- أصبح المديح وسيلة للضغط الاجتماعي، وأصبح الإرشاد نوعًا جديدًا وبارزًا من الصداقة في خطاباته الأخيرة. لا يبدو أن هذا الأسلوب كان ناجحًا بشكل خاص، لكنه يشهد على أهمية العلاقات الشخصية في السياسة الرومانية؛ فمن غير المعتاد أن يتحدث السياسيون المعاصرون عن صداقاتهم مع بعضهم البعض، خاصةً كأساس للسياسة، ولكن يبدو أن هذا كان هو القاعدة في روما الجمهورية.
- هناك أدلة كافية تشير إلى أن محاورة "لايليوس عن الصداقة" ربما كانت وسيلة لشيشرون للتعبير بشكل علاجي عن تأملاته حول الاضطرابات السياسية الجارية في روما. فعلى الرغم من معارضته لحكم الفرد الذي كان قيصر يسعى لإقامته، فإن اغتياله ربما دفع شيشرون إلى إعادة تقييم صداقتهما السابقة. وهكذا، تأمل شيشرون في معنى الصداقة بالنسبة له وللمجتمع الروماني ككل.
- في محاورة " لايليوس عن الصداقة" يمتنع شيشرون عن ذكر أي كتّاب يونانيين، مما يوحي بأنه تعامل مع هذا الموضوع بشكل شخصي أكثر من الموضوعات الأخرى في أطروحاته. وعند مناقشته للصداقة ودورها في الدولة، يؤكد شيشرون أن الطاغية لا يمكنه الإطاحة بالدولة دون أصدقاء، كما أنه لا ينبغي لأحد أن يمنح صداقته لشخص يرغب في الإطاحة بالدولة لمصلحته الشخصية.